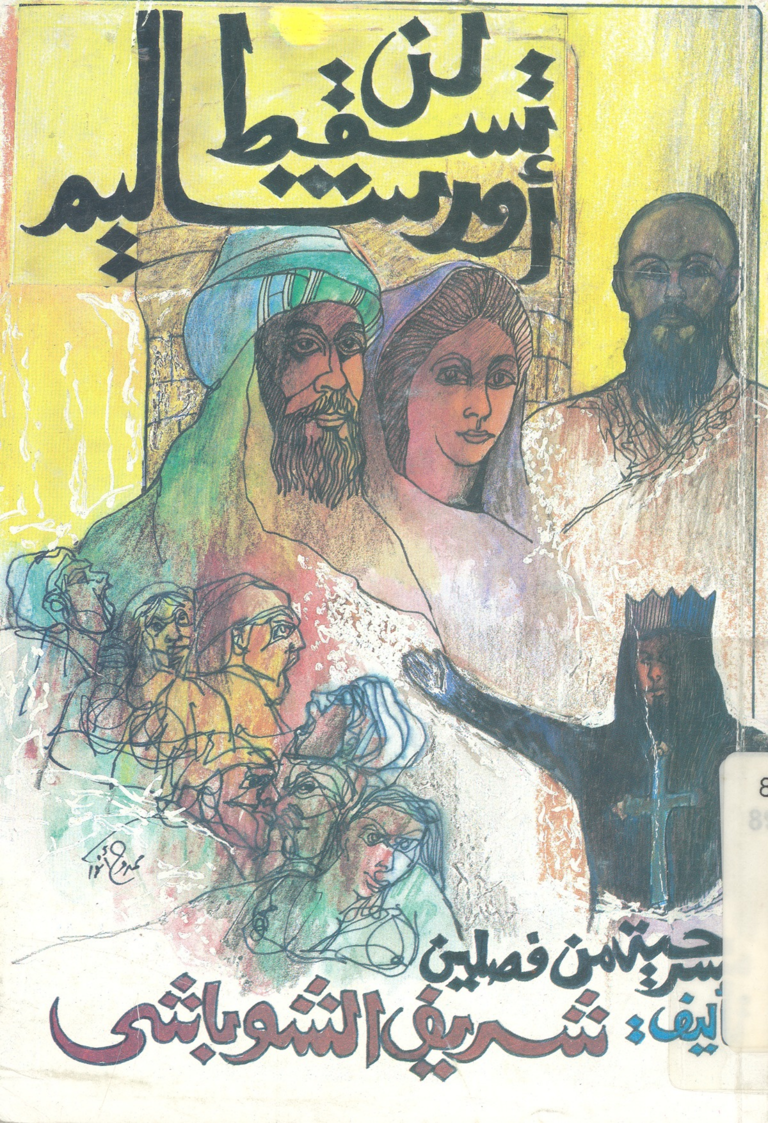
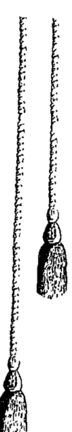

لن تسقط أورشليم
مسرحية من فصلين
تأليف: شريف الشوباشي



لن تسقط أورشاليم

(مسرحية من فصلين)

تأليف : شريف الشوباشى

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

شكر واجب

أتوجه بالشكر العميق لكل من ساهم فى أن يخرج هذا العمل إلى حيز النور سواء بالرأى أو النصح أو التشجيع وعلى رأسهم الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى والدكتور غالى شكرى والأستاذ محمد سلماوى والأستاذ سمير غريب وفريدة وعلى الشوباشى وعصام المغربى والدكتور أحمد يوسف والأستاذ محمود القيعى والأستاذان فتحى الشرقاوى وهانى طلبة .

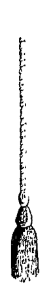
كما أشكر من صميم القلب أصحاب المؤلفات التى أتاحت لى كتابة هذه المسرحية مع الالتزام بالأحداث التاريخية وبروح العصر وعلى رأسهم الأستاذ أمين المعلوف وابن الأثير وابن القلانسى والمغفور لهما الأستاذان أحمد أمين وأحمد حسين والدكتور حسين مؤنس والأستاذ محمد عثمان الخشت والدوق دى كاسترى وفرانشيسكو جابرييلى وجورج تيت .

المؤلف

الشخصيات :

افتخار الدولة : قائد حامية القدس الفاطمى (فى بداية الأربعينات)
هند : محظية افتخار الدولة (٢٠ عاماً)
عبد الرحمن
الجرجانى فرسان فاطميون
على
حسان
العراف
مبعوث الأفضل شاهنشاه أمير جيوش الدولة الفاطمية
مبعوث سان جيل أحد قادة الفرنجة
أبو سعد الهروى : قاضى قضاة دمشق (فى منتصف الأربعينات)
أم الحكم : زوجة الهروى
أم مروان : شقيقة الهروى
سفيان : قائد الحرس أمام قصر الخليفة العباسى
قائد الحرس أمام المسجد

جلال الدين : عم الخليفة المستظهر بالله
وزير الخليفة
القاضى الدامغانى : قاضى بغداد
الشيخ سليمان : كبير تجار بغداد
المستظهر بالله : الخليفة العباسى (٢٢ عاماً)
سكان القدس :
رجل أول .. رجل ثانى .. رجل ثالث .. رجل رابع
امرأة أولى .. امرأة ثانية .. امرأة ثالثة
ساكن انطاكية
ساكن معرة النعمان
ساكن حصن الأكراد





الفصل الأول

المشهد الأول

(تقع أحداث هذه المسرحية عام ٤٩٢ هجريا الموافق لعام ١٠٩٩ بالتقويم الميلادى . يرفع الستار على مشهد مدينة القدس عن بعد مع أول أضواء الفجر ومعالم المسجد الأقصى وقبة الصخرة ترتسم فى الأفق البعيد . خيالات رجال ونساء فى أوضاع مختلفة واقفون أو جالسون دون أن نرى وجوههم بوضوح) .

الكورس : يا أيتها الأقدار كونى رحيمة بنا .. يا رب العالمين قنا عذاب القتل والسبى فانت أرحم الراحمين .. أنقذنا يا ربنا من سيوف الفرنجة التى صارت تحصد المسلمين فى كل مكان حتى وصلوا إلى أبواب مدينتنا المقدسة .. احم مدينتنا يا رب العالمين فهى التى بعثت منها إلى السماء برسولنا الحبيب المصطفى فى ليلة الأسراء والمعراج .. ومنها رفعت عيسى عليه السلام إلى ملكوتك الأعلى بعد أن تآمر عليه المتآمرون .. ونحن سكان القدس نصلى من أجل صمودها فى وجه الغزاة ذوى الوجوه البيضاء الكالحة واللحى الصفراء . فصيحاتهم تخرق آذاننا منذ أربعين يوما من وراء أسوار مدينتنا .. يقولون : ستسقط أورشليم فى أيدينا .. لكن امراءنا طمأنونا .. يقولون : لن يسقط بيت المقدس .. نعم .. لن تسقط أورشاليم .

المشهد الثانى

(أول أشعة الفجر بدأت تضىء المدينة بمطلع يوم ١٥ يوليو ١٠٩٩ . حجرة واسعة بها « طاقة » زجاجية كبيرة تطل فى عمق المسرح على مدينة القدس . نور الفجر يظهر شيئا فشيئاً وعندما يبدأ العرض تكون الحجرة فى نصف ظلمة ثم تضاء تدريجيا . فارس واقف أمام الطاقة يتأمل باهتمام الأفق البعيد . يدخل عليه فارس آخر) .

عبد الرحمن : إلى ما تنظر يا جرجانى ؟ ألا زال يراودك أمل وصول جيش الأفضل شاهنشاه أمير جيوش الدولة الفاطمية لإنقاذنا مما نحن فيه ؟ أو وهم

جيش يأتى من بغداد يرسله الخليفة العباسى حامى حمى الإسلام ؟

الجرجانى : أنه أملنا الوحيد .. فنحن لم نعد قادرين على فك هذا الحصار بأنفسنا .

عبد الرحمن : ألا زلنا نتعلق بهذا الأمل الواهى كما يتعلق الغريق بكل جوارحه بقشة تطفو على سطح البحر وهو يعلم بعقله أنها عاجزة عن أن تحمله إلى بر النجاة ؟ وفى كل يوم نقف فى أعلي هذا البرج ساعات وساعات نحدق فى الأفق البعيد آملين أن نرى أقل عفرة غبار تنبؤنا باقتراب جيش الانقاذ .. أربعون يوما مرت متثاقلة كأنها أربعون قرنا من الزمان ولم تظهر فى الأفق أية بادرة . مات الأمل فى عقولنا .. لكن نفوسنا تتشبث بتصديق المستحيل .

الجرجانى : أتشك فى وصول جيش الأفضل يا عبد الرحمن ؟ إنه فى الطريق ..

عبد الرحمن : لا أشك فى قدومه .. ولكن أتعلم متى سيأتى ؟ عندما تكون القدس بين أيدى الفرنجة ونكون نحن فى عداد الأموات .

الجرجانى : لا تقل هذا يا رجل ..

عبد الرحمن : كيف لا أقول هذا وقد تجمعت جيوش الفرنجة أمام أسوار المدينة لشن الهجوم

الأخير . ولم يعد هناك مكان حصين يمكن أن يصمد بعض الوقت غير هذا البرج الذى نحن فيه .. محراب داوود .. لكن يبدو أن مزاجنا يدفعنا إلى إيثار التحليق فى الأوهام بدلا من مجابهة الواقع وإلى التفاؤل الأحمق بديلا عن الحقيقة العارية عن التجميل .

الجرجانى : المعركة لم تنته بعد . تجلد يا صاحبى . قواتنا لا زالت كما هى ونحن على استعداد للقتال . تجلد يا عبد الرحمن .

عبد الرحمن : لست خائفا .. طوال حياتى لم أعرف إلا الحرب والقتال . وكم ترقبت هجوم الاعداء فى أحلك الظروف دون أن يطرف لى رمش .. وأنا اليوم على أتم استعداد لأن أواجه مصيرى . وقل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا ..

الجرجانى : صدق الله العظيم .. والله لن يكتب لنا إلا النصر باذنه تبارك وتعالى وسنجهز على أعداء الله وينفك هذا الحصار وسيفرون أمامنا كالفئران .

عبد الرحمن : لست واثقا من ذلك .. أيكتب لنا النصر ونحن فى هذه الغيبوبة .. أيكتب لنا النصر ولا هم لنا إلا أن نتقاتل فيما بيننا ؟ إن أمراءنا ، إحقاقا للحق ، لم يتقاعسوا عن بذل الجهود .. لكن أتدرى

ما جهودهم ؟ إنها تنصب على الإيذاء بالأمير العربى المعادى وبالجار المسلم المنافس .. وبدلا من أن يتكاتفوا لمواجهة الخطر الذى يهدد أمتنا كلها وصد هجوم الفرنجة الزاحف فى اتجاه بيت المقدس فإن هم كل واحد منهم هو كيف يستفيد من الغزو الصليبى لتحقيق مصالحه وإضعاف جاره .

الجرجانى : كلامك يبعث على اليأس يا رجل ؟ ونحن الآن فى حاجة إلى نفحة من الأمل .

عبد الرحمن : الأمل يبدأ من إدراك الواقع على مرارته ثم السعى إلى تغييره . أم أنك تفضل من يكذب عليك ويجعلك تسبح فى عالم الأوهام ؟

الجرجانى : لا .. ولكن قل كلمة طيبة على الصباح وإلا فوفر كلامك الذى أثلج الدماء فى عروقى قبل أن يبدأ اليوم .

عبد الرحمن : حسنا .. اطمئن يا جرجانى .. لن تمر ساعات قليلة إلا ونسمع صيحات الذعر تنبعث من معسكرات الفرنجة عندما ينقض عليهم جيش الأفضل فنخرج من وراء أسوار أورشاليم ويسقط الفرنجة فى كماشة محكمة بيننا وبين رجال الأفضل فننزل فيهم ذبحا وضربا حتى نجهز عليهم قبل غروب الشمس .

الجرجانى : أتسخر منى يا عبد الرحمن ؟ ما الذى أصابك ؟ وما الذى تقصده بهذا الكلام الغريب ؟

عبد الرحمن : ما أقصده واضح وأنت تعرفه مثلى .. لكنك ترفض أن تراه . أنت تعرف يا جرجانى أن أمراء السلاجقة الذين يحكمون الشام يخطبون ودَ الفرنجة جهارا نهارا ويتعاملون معهم دون مواربة . وقد وصل الأمر بجناح الدولة ، حاكم حمص ، أن أرسل إلى القائد الأفرنجى سان جيل هدايا من بينها عدد كبير من الخيول بعد أن أكد رسله للفرنجة أن أميرهم قد سمع أن الخيول تنقصهم . وحصن الأكراد الذى اتخذه الفرنجة مقرا لهم صار مزارا للسفراء العرب يهرولون إليه من قبل أمرائهم كل يعرض خدماته ربما ليس خوفا من الفرنجة بقدر ما هو اتقاء لشرهم من أجل التفرغ لمحاربة اخوانهم العرب والمسلمين .

الجرجانى : أعلم كل هذا كما تعلمه أنت . وأعلم أن القاضى جلال الملك صاحب طرابلس قد أرسل للفرنجة مرشدين من رجاله ليدلوهم على الطريق الساحلى المؤدى إلى بيروت عندما شعر أنهم يبطئون الخطى أمام مدينته وخاف أن يكون ذلك تحسبا لغزوها .

عبد الرحمن : وفيم تجادل إذن ؟

الجرجانى : أقول أننا جنود .. مهمتنا الحرب والقتال وليست توجيه اللوم لقادتنا وانتقاد تصرفاتهم . فهم أقدر منا على اتخاذ المواقف الصالحة لبلادنا وللإسلام . وقد أعزنا الله بقادة من أفضل طراز .

عبد الرحمن : ربما .. ولكن نحن قوم نتفنن فى إفساد قادتنا .. فشعراؤنا ، وهم ضمير الأمة وصوتها المسموع ، يتسابقون فى مدح الخلفاء والأمراء والحكام من أجل الحصول على الأموال والمنافع . فطاحل الشعر كرسوا أهم قصائدهم للمديح والإطراء . خذ المتنبى فارس العربية وساحر البيان ، ألم تكن معظم قصائده فى مدح سيف الدولة وبدر بن عمار وغيرهما . ألم يقل فى كافور :

فأصبح فوق العالمين يرونه
وإن كان يدنيه التكرم نائيا

ثم عاد وهجاه بأقذع هجاء حين لم يستجب الأخشيدى لمطالبة . وأبو تمام والبحترى وغيرهم وغيرهم ..

الجرجانى : وهل ذنب الشعراء أن الحكام يحبون الإطراء ويطربون للمديح ؟ لا تكن مثاليا يا عبد الرحمن .. فالشعراء والعلماء ليس أمامهم

خيار .. إما أن يعيشوا فى كنف الأمراء أو يموتون جوعا . فكل من عفت نفسه وأبتعد عن بلاط أولى الأمر عاش فى فقر مدقع . عندك ابن الرومى مثلا ، كان يكاد لا يجد قوت يومه . والعالم العظيم أبو حيان التوحيدى أتعلم أنه كان يأكل الحشائش فى الصحراء من شدة الجوع لأنه كان يرفض التذلل للأمراء واستعطاف جانبهم ؟ والفارابى أبو الفلسفة كان يعمل ناطورا بالحدائق ويعيش على الكفاف لبعده عن القصور . من الظلم أن تتهم الجميع دون تمييز بالتملق والرياء .

عبد الرحمن : هذا صحيح .. معك حق .. وأنا لم أقصد أن أتهمهم جميعا .. لكن أيصل بنا الهوان إلى درجة تأليه الحكام وإسباغ صفات الألوهية على أشخاصهم .

الجرجانى : لا تبالغ يا عبد الرحمن .. من الذى أله من ؟

عبد الرحمن : ألم تسمع عن ابن هانىء الأندلسى الذى قال فى المعز لدين الله :

ماشئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فانت الواحد القهار

الجرجانى : أستغفر الله .. أجننت يا رجل ؟ ماذا تقول ؟ أن ما نطقت به كفر بيِّن . أعوذ بالله . أتنعت بشرا بصفات الله عز وجل ؟

عبد الرحمن : أنا لم أقل شيئا من عندى .. فهذا شعر معروف لشاعر كان ملء الأسماع والأبصار فى أول الدولة الفاطمية .

الجرجانى : لكن هذا البيت وحده يكفى لقطع رقبة صاحبه .

عبد الرحمن : أنت تقول هذا .. لكن أتدرى ماذا فعل المعز عندما أستمع إلى قصيدة المدح التى بها هذا البيت ؟ أبدى استحسانه التام ثم أجزل العطاء لابن هانىء . هذا هو حالنا يا صاحبى .. أليس من الطبيعى بعد ذلك أن يتبارى الآخرون فى المديح والتبجيل والتأليه استرضاء للخليفة ومحاولة لكسب رضاه .. وتريد بعد ذلك أن ننتصر على الفرنجة ؟

الجرجانى : ولكن ..

عبد الرحمن : لا تدافع يا صاحبى فنحن فى الهم سواء .. ومصيرنا فى النهاية سيكون واحدا .

(يدخل أحد الفرسان)

حسان : السلام عليكم .. لقد استيقظ مولانا منذ قليل

وهو فى طريقة إلى هنا ليطلع منا على آخر الأنباء .

عبد الرحمن : استيقظ .. ولماذا يترك أحضان محظيته الجميلة فى هذه الساعة المبكرة ؟ لازال اليوم طويلا ..

حسان : اتتهكم على قائدنا يا عبد الرحمن ؟ ألم تقلع عن عادة الانتقاد المستمر لكل شيء ؟

عبد الرحمن : لا أنتقد .. لكنى على عكسكم يا حسان أرى الواقع أمامى دون تجميل . ان افتخار الدولة يقضى معظم وقته مع معشوقته الحسناء أليس كذلك ؟

حسان : وما العيب فى هذا ؟

الجرجانى : من حقه أن يتسرى .. ماذا تريده أن يفعل ؟

عبد الرحمن : ما أريده أن يفعل ؟ أن يبقى بين رجاله .. يقتسم حياتهم وهمومهم وأن يدخل الطمأنينة فى قلوب المحاربين والحمية فى نفوسهم . فالرجال أهتزت عزائمهم وفقدوا كل قدرة معنوية على القتال وهم فى أمس الحاجة إلى من يقتلع نار القلق والشك من نفوسهم ويغرس مكانها الأمل والعزيمة .

حسان : اتركه وحاله يا أخى .. الا تتسرى أنت

كما نفعل جميعا ؟ فلماذا تستكثر عليه ما نفعله نحن ؟

الجرجانى : ثم أن المرأة التى أختارها تستحق التفرغ حقا .. ما أروعها .. ان هند هذه من أجمل من رأيت من النساء فى حياتى وأشك أن يقع بصرى على أجمل منها . بصراحة أنا أعذره لو نسى الحصار والفرنجة والدنيا كلها فى أحضانها الناعمة .

عبد الرحمن : حقا .. أنها فعلا حسناء .. لكنها أكثر من هذا .. أنها تتمتع بشخصية صلبة وهى التى تحفز الرجال على المقاومة والاستبسال من أجل الصمود للفرنجة . وقد سمعتها تقول أنها تفضل ملاقاة الموت هنا رافعة الرأس فى الأرض التى رأت فيها نور الحياة بدلا من عار الفرار .

الجرجانى : (يطلق ضحكة استنكارية) : انه كلام يا صاحبى .. كلام مدهون بالزبد يذوب عندما تحين ساعة الجد .

عبد الرحمن : أعتقد أن .....

(أحد الحراس يدخل مسرعا)

الحارس : مولاى القائد افتخار الدولة .

(يدخل افتخار الدولة ومعه على وفارس آخر وأحد الحرس)

افتخار الدولة : السلام عليكم أيها الفرسان .

(عبد الرحمن والجرجانى وحسان) : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

افتخار الدولة : ما آخر الأنباء .

على : ليست سارة يا مولاى .. لقد توغل الفرنجة مع أول أشعة الشمس إلى حافة أسوارنا الشمالية ونجحوا فى ردم جزء كبير من الخندق الذى حفرناه أمام السور والقتال يدور الآن بشراسة بين جنودنا والفرنجة . لكن برجهم الخشبى المتحرك اقترب بصورة مقلقة للغاية من أسوار المدينة .

افتخار الدولة : من أية جهة بالتحديد ؟

حسان : من جهة باب العامود على بعد مرمى حجر من برج اللقلاق .

على : لكن جنودنا يقاتلون ببسالة نادرة .

حسان : ومع أن السلاح والعتاد الذى بين أيدى الفرنجة لا قبل لهم به إلا أنهم صامدون لهجمات العدو المتوالية .

على : إنما الموقف الآن يا مولاى أصبح أكثر حرجا من أى لحظة ماضية .

افتخار الدولة : أريد معلومات مفصلة عن

مواقعهم . أريد أن أعرف بالضبط مواقف جيوشهم الخمسة التى تحاصر أورشاليم من الشمال والغرب والجنوب وخاصة جيش سان جيل الذى يواجه محراب داوود .

على : نعم يا مولاى .

عبد الرحمن : أخشى أن يكون ذلك غير ذى جدوى الآن ..

أفتخار الدولة : ماذا تقصد ؟

عبد الرحمن : المسألة مسألة دقائق . ولم يعد هناك وقت لجمع المعلومات . علينا أن نتحرك ولا نترك المبادرة بين أيدى أعدائنا .

الجرجانى : وماذا تريدنا أن نفعل ؟

على : أملنا الوحيد الآن هو أن نصمد فى هذا البرج حتى يأتى الفرج . ولو غامرنا بالخروج منه فسنلاقى حتفنا على أيدى الفرنجة بأسرع مما تتخيل .

إفتخار الدولة : أنت تهذى يا عبد الرحمن يبدو أنك فقدت أعصابك ولم تعد تتحمل الموقف .

عبد الرحمن : كيف تقول هذا أيها الأمير ؟ أنت أكثر من يعرفنى فى هذا المكان وسبق أن حاربت إلى جوارك وكتفى فى كتفك وواجهنا مواقف يرتعد فيها أشد الرجال بأسا فلم أفقد أعصابى كما تقول .. لا تقل

مثل هذا فأنت تعلم أن كلامك غير صحيح . إنما الوضع الآن لا يحتمل تبادل الاتهامات .

أفتخار الدولة : وهل يحتمل الوضع الآن الجدل والسفسطة ؟ اذهب يا عبد الرحمن مع زملائك إلى موقع القتال وحاول أن تعرف ما يحدث بالضبط بدلا من الفتاوى التى لا تجدى .

(يتحرك عبد الرحمن ببطء بعد لحظة تردد ثم يخرج ومعه حسان) .

افتخار الدولة : لا أدرى لماذا أشعر بانقباض فى القلب منذ أن أفقت من النوم هذا الصباح .. أظن أننى لم أنم أكثر من ساعة واحدة شعرت خلالها أن حجرا ضخما يجثم فوق صدرى . وعندما أفقت بعد حلم مزعج .. مزعج للغاية .. أحسست باختناق أنفاسى ووجدت العرق يتصبب من وجهى . لا أدرى أن كان هذا نذيرا بالنهاية .

على : لا تقل هذا يا مولاى .. أنها ضغوط الموقف الذى نحن فيه .. فمنذ أربعين يوما تتحمل وحدك أعباء حملة الفرنجة ونسمع صيحاتهم التى تشبه أصوات الحيوانات المفترسة . وفى كل يوم بل فى كل لحظة تهفو قلوبنا انتظارا للفرج . انتظارا لجيش مولاى

الأفضل الذى سيخلصنا بإذن الله من الحصار اللعين ..

افتخار الدولة (هازئا) : جيش الأفضل ..

ألا زلتم تحلمون به .. أنه سراب .. أنه أسطورة .. أعلموا أن الأفضل يسعده أن تلحق بى هزيمة نكراء هنا فى بيت المقدس ثم يأتى هو بعد ذلك لانقاذه فيصير بذلك بطلا يذكره التاريخ وحاميا لحمى الإسلام .. فهو يدرك تماما ما نحن فيه الآن .. وقد أرسلنى أنا بالذات كى ألقى هذا المصير ..

الجرجانى : هل يعقل هذا يا مولاى ؟

على : ولماذا يفعل ذلك ؟

افتخار الدولة : ان ما يحلم به الأفضل من زمن هو التخلص منى .. وقد لاحت له الفرصة الذهبية كى يبعدنى عن طريقه .. فهو يعلم أننى اكفأ القادة العسكريين وأشجعهم فى الدولة الفاطمية كلها .. ويعلم مقدار شعبيتى وسط جيشه ذاته . وهو يعتقد أننى طامع فى مكانه .. لذا أرسلنى إلى هنا وهو مدرك أنه يكلفنى بمهمة مستحيلة التنفيذ .

الجرجانى : لكن أيصل به الحد إلى الاسهام عمدا فى إنزال الهزيمة بجيش الدولة الفاطمية ؟ ألا يعمل حسابا لشعب مصر ؟

افتخار الدولة : شعب مصر .. وما علاقته بشعب مصر ؟ أنه أرمنى رماه الزمن البائس على ضفاف النيل فحكم هذا البلد الكبير فى غفلة من الزمان . صحيح أن أباه بدر الجمالى قد حقق انجازات لا بأس بها فى مصر لكن أين الابن من الأب رحمه الله .

على : حقا .. لقد كان مولانا بدر الجمالى معروفا بشجاعته .

افتخار الدولة : إنما الأفضل قد ورث عن أبيه دهاء الثعالب ولم يرث منه شجاعة الأسود . فالجمالى عندما استدعاه إلى مصر الخليفة المستنصر بالله من عكا ، التى كان واليا لها ، اختار أن يحضر من الشام فى قلب الشتاء .. وكانت الأمواج فى عرض البحر ترتفع كالجبال العاتية .. والسفينة كالورقة تتراقص فوق سطح الماء . وامتقعت وجوه الرجال من هول الموقف وخارت عزائمهم .. لكن الجمالى ظل ثابتا يصدر أوامره فى هدوء تام حتى وصلت السفينة إلى مرفأ الأمان بالاسكندرية فاستقبله الناس فيها استقبال الفاتحين . والله لو أن بدر الجمالى حى اليوم لما كنا فى هذه المحنة .

الجرجانى : ندعو الله أن يهدى الأمير الأفضل .

فسقوط القدس هو هزيمة نكراء له قبل أن تكون هزيمة لنا نحن المدافعين عنها .

افتخار الدولة : دعك من هذا المغرور يا جرجاني . ولنفكر فيما نحن فيه الآن . أين العراف ؟ استدعوه على الفور .. أريد أن أستشيره فى الكوابيس التى راودتنى طوال ليلة الأمس .

أحد الحراس : نعم يا مولاى .

(يخرج الحارس مسرعا) .

على : سأذهب مع الجرجانى ناحية باب اللقلاق لنتعرف على الأوضاع ونتأكد من أن كل شىء يسير حسب الخطة المتفق عليها .

(يخرج على والجرجانى ويبقى افتخار الدولة وحده) .

افتخار الدولة : يا رب .. أيكون اليوم .. يوم الجمعة الثانى والعشرين من شعبان عام ٤٩٢ بعد هجرة سيدنا الرسول عليه الصلاة والسلام هو اليوم المشئوم الذى يسقط فيه بيت المقدس بين أيدى الفرنجة الكفرة ؟ وهل يكون سقوط بيت المقدس على أيدى افتخار الدولة ؟ كم من المرات ألهمتنى يا خالق السماوات والأرض لأقود رجالى إلى النصر وكان

أعدائى من بنى دينى وملتى فلماذا تتخلى عنى اليوم وأنا أواجه أعداء الإسلام ؟ هل أخذل أمة العرب والمسلمين فى لحظة هى أحوج ما تكون فيها إلى من ينقذها من حالها البائس ؟ هل يكون مصيرى أن أنهزم فى أهم معارك حياتى ؟ أيكتب اسمى فى سجل التاريخ الحزين كما كتب اسم عبد الرحمن الغافقى الذى انهزم أمام الفرنجة فى بلاط الشهداء بدلا من أن يكتب بحروف من نور وسط أسماء من أعزوا الإسلام كخالد ابن الوليد وعمرو بن العاص وموسى بن نصير ؟ لماذا يا رب ؟ ان كنت قد أذنبت فانى أتوب إليك وألتمس عفوك ومغفرتك يا رب العالمين . أخرجنى من هذه المحنة يا الهى وسأكون عبدا تائبا خضوعا إلى أن تدق ساعتى .

(يدخل العراف) .

العراف : لبيك مولاى .. يبدو عليك الارهاق الشديد .. أنت لم تنم جيدا هذه الليلة .

افتخار الدولة : صدقت يا رجل .. يا ليت كل نبوءاتك بهذه الدقة .. لقد حلمت حلما يحتاج إلى تفسير منك .

العراف : خبرنى يا سيدى ما هو ؟

افتخار الدولة : حلمت أننى أقف فوق جبل شاهق الارتفاع ووجدت نفسى فجأة على حافته وانزلقت قدمى فتشبثت بطرف حجر فى اللحظة الأخيرة وأخذت أقاوم السقوط فى الهاوية السحيقة التى كنت أراها تحت قدمى وكأنها هوة العدم ..

(يصمت قليلا) .

العراف : وماذا حدث ؟

افتخار الدولة : فى البداية أحكمت الامساك بالحجر ثم بدأت مقاومتى تضعف شيئا فشيئا حتى خارت قواى وكدت أترك جسدى يتهاوى فى الفضاء ..

ثم استيقظت وأنا فى حالة إعياء شديد وأشعر بالاختناق وكأنى غير قادر على التنفس .

العراف (يفكر قليلا قبل أن يبدأ فى الكلام) : الشعور بالاختناق من طول الحصار وصعوبته على نفسك بصفتك مسئولا عن حماية بيت المقدس وفى عنقك آمال العرب والمسملين فى كل مكان .. أما الهاوية فهى دليل فى الحلم على الاحساس بالخطر وترقب سوء المصير لكنك تستيقظ وأنت لازلت ممسكا بالحجر وهو طوق النجاة بالنسبة لك .. أليس كذلك ؟

افتخار الدولة : نعم .

العراف : وهذا تفسيره أن الحصار سينفك ولن يصيبك أى أذى وأن الجيش المنتظر سيصل قريبا بإذن الله .

أفتخار الدولة (باهتمام شديد) : الجيش المنتظر سيصل قريبا ؟ متى ؟

العراف (ينظر فى كرة بيضاء أمامه ويطرق طويلاً ثم يقول) : خلال أيام قليلة بإذن الله ..

أفتخار الدولة : لكننا لن نصمد لأيام قليلة . لقد وصل الفرنجة إلى أعتاب المدينة . أنظر جيدا يا رجل ..

العراف : التاريخ ليس واضحا أمامى بالضبط يا مولاى ..

افتخار الدولة : قلت انظر جيدا .

العراف : أنتظر .. نعم .. نعم أراه قادما .. أنه يقترب منا .. أنه جيش ضخم .. أرى خيولا وجمالا محملة ومجانيق .. وطوفانا من الجنود .. أنه جيش سيدنا الأفضل ..

افتخار الدولة : متى يصل إلى أورشاليم ؟

العراف : غدا بعون الله .

إفتخار الدولة : غدا .. غدا .. ندعو الله أن تكون نبوءتك صحيحة .. فما أحوجنا اليوم إلى جيش

الخلاص لتنقلب الأمور ونأخذ نحن زمام مبادرة الهجوم على أعدائنا . لكم أتلهف لاعيش هذه اللحظة التى ستكون فاصلة فى حياتى . فكم قاتلت على جبهات أختلف فيها شكل العدو وتباينت أساليب حربه وحيله .. لكن هذه المرة أشعر أننا نواجه قوة لا قبل لنا بها طالما ظلت الفرقة تسود صفوفنا .

فهؤلاء الفرنجة مختلفون فيما بينهم فى كل شىء .. فى اللغة والشكل والعادات .. وامراؤهم لهم أيضا أطماع شخصية وطموحات لا حد لها لكنهم يعرفون متى ينحون خلافاتهم جانبا من أجل مواجهة العدو المشترك فى لحظات الحسم . وأنا أعلم أنهم غير متفقين على وسائل غزو مدينتنا وأقتسام المغانم وهم مختلفون على من يتولى منهم ملك المدينة المقدسة .. لكننى لا أستطيع أن أعتمد على نشوب قطيعة بين الأمراء الذين يحاصروننى مهما اشتد الخلاف بينهم . أما هم .. فبوسعهم أن يناموا ويرخوا ستائرهم دون قلق لأن الدولة العباسية لا ترغب فى مساعدة الدولة الفاطمية وأن الخليفة الأندلسى يسعد لهزيمة الدولتين معا وأن أمراء السلاجقة يعتبرون جيرانهم المسلمين أشد خطورة عليهم من الفرنجة .. هذا هو حالنا

اليوم .. لذا يرتجف قلبي وهو الذي لم يكن يعرف طعم الخوف ولو انطبقت السماء على الأرض .

العراف : سيدى .. عليك أن تتسلح بالأمل .

افتخار الدولة : الأمل .. أى أمل ؟ ذلك الأمل الخسيس الذى يخدر ادراك صاحبه ويجعله كالأبله لا يرى الحقيقة أمامه . الأمل الذى يزين للإنسان غدا ورديا ثم يغدر به عند الجد فيصطدم بصخرة الواقع دون مقدمات وهو لا يعمل له حساباً . لا .. لا أريده .. احتفظ به لنفسك ..

العراف : مولاى .. ليس بوسع إنسان أن يحيا والأمل منعدم فى قلبه . لقد صدق من قال : ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل .

افتخار الدولة : نعم . الأمل الذى يعمل صاحبه من أجل تحقيقه . الأمل الذى يحفز على المبادرة واجتياز الصعاب . الأمل الذى ينفخ فى النفس الحمية والشجاعة هذا هو الأمل الذى أرضى به .. وليس أمل التواكل والاستكانة الذى اعتدنا عليه دائما والذى تريده لى .

العراف : مولاى ...

افتخار الدولة : كفانا ثرثرة .. أن لدى مهاما تنتظرنى لو كنت تريد أن تبقى على قيد الحياة ولا تنفذ

سيوف الفرنجة فى جسدك . فالموقف ...

(يدخل أحد الجنود)

الجندى : مولاى .. رسول من أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه وصل لتوه ويريد مقابلتك .

العراف : رسول من الأفضل .. وكيف جاء إلى هنا وأين جيش الأفضل الآن ؟

افتخار الدولة : دعه يدخل على الفور وسنعرف منه كل شىء .. بدلا من الرجم العقيم .

المشهد الثالث

(شارع من شوارع القدس ومجموعة من الناس البسطاء جالسون أو واقفون فى حالة من الخوف والرهبة وهم نفس الذين ظهرت خيالاتهم فى المشهد الأول) .

رجل أول : أترون البرج الخشبى الذى دمره جنودنا البواسل ؟ لقد اشتعل نارا وحمى واحترق كل من بداخله من الفرنجة .

امرأة أولى : ورأيناهم يقفزون من أعلى البرج وهم يصيحون فزعا والنار ممسكة بثيابهم وكأنهم شياطين بأجنحة من لهب .

رجل ثانى : لقد توهموا أن هذه الأبراج ستحميهم من نيران جنودنا لكنها كانت فى الواقع كخيال المآتة الذى يثير الرعب عن بعد لكنه لا يثير إلا الضحك والسخرية عن قرب .. سننتصر عليهم بعون الله .

رجل ثالث : لكن هناك هذا البرج الثانى الذى يناطح عنان السماء فى الشمال واقترب من أسوار المدينة . هل نستطيع تدميره هو الآخر ؟ أم أن الفرنجة سيدخلون به منتصرين إلى قلب مدينتنا ..

امرأة ثانية : ياويلنا لو دخلوها .. فقلوبهم لا تعرف الرحمة .

امرأة ثالثة : بل سنسحقهم بعون الله .. لقد سمعت البعض يؤكد أن الطاعون بدأ ينتشر بين صفوف الفرنجة وهم يموتون بالمئات كل يوم وسوف يجهز الوباء عليهم خلال أيام ولن يجدوا له شفاء لأن السماء غاضبة عليهم .

رجل ثانى : أما أنا فقد علمت أن أحد أولياء الله الصالحين فى طريقه إلى القدس وسوف يدخلها دون أن يراه انس أو جن وأنه سيقرأ التعاويذ على جيش الأعداء فيصاب قادتهم بالجنون وينفرط عقد جيوشهم فيهيمون فى الأرض بغير هدى .

امرأة أولى : نعم .. لقد سمعت أيضا أن أحد الأولياء يتأهب لدخول مدينتنا .. لكنى علمت أن من قدراته الفائقة بث الفرقة فى صفوف الأعداء .. وسوف يجعلهم بإذن الله يرفعون السلاح على بعضهم البعض ويتقاتلون فيما بينهم حتى تفنى جيوشهم عن آخرها فيخرج رجالنا من أسوار مدينتنا ويجهزون على من بقى منهم حيا بإذن الله .

امرأة ثانية : لكنهم يقولون أن الفرنجة دخلوا بالفعل إلى بعض أحياء المدينة وأنهم يقاتلون بأسلحة شيطانية رهيبة لا قبل لرجالنا بها .

رجل رابع : يقولون إنهم يستخدمون سهما يخترق الف رجل فى ضربة واحدة .

رجل ثانى : لا تستمعوا إلى هذه الشائعات التى تفوح منها رائحة الخيانة .

امرأة أولى : انها كذب يروجه عملاء الفرنجة الذين اخترقوا مدينتنا ويعملون فى الخفاء لمساعدة أعداء الله على الانتصار .

رجل أول : حذارى أن تروجوا لهذه الشائعات فهى سلاح أمضى من كل ما بين أيدى الفرنجة من أدوات الحرب والدمار .

امرأة ثانية : نعم .. فالشائعات تسرى فى القلوب قبل العقول وتدمر العزائم لأنها تستأصل الأمل من النفوس .

امرأة ثالثة : لا يجب أن نستسلم للخوف فهذا بالتحديد ما يريده أعداؤنا .

امرأة ثالثة : لو تسلل اليأس إلى قلب رجل واحد فانه ينتقل بسرعة النار فى الزيت إلى كل القلوب وكل النفوس فيتمكن من العقول ويشل أيدى الرجال فيمنعها من رفع السلاح فى وجه العدو .

رجل ثالث : لا تستسلموا لليأس يا اخوانى .

الجميع : نعم .. لن نستسلم لليأس . لن نستسلم لليأس .



المشهد الرابع

(افتخار الدولة يقف كما تركناه فى المشهد السابق بالضبط مع العراف ثم يدخل الحارس ومن ورائه مبعوث الأفضل وحسان) .

الحارس : رسول أمير الجيش مولاى الأمير الأفضل شاهنشاه .

(يدخل الرسول)

الرسول : السلام عليكم يا سيدى القائد .. الفرنجة يحكمون الحصار على المدينة من كل مكان وقد نجحت بصعوبة بالغة فى تحويل انتباههم والوصول إليكم .

افتخار الدولة : حسنا .. حسنا .. نحن نعيش فى

هذا الحصار منذ أربعين يوما كاملة دون أن يشعر بذ
أحد .. أسرع بالافصاح عن رسالتك .

الرسول : يبلغك سيدى القائد المعظم أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه سلامه وتحياته ويعرب لك عن اعجابه بصمود بيت المقدس تحت قيادتك أمام جيوش الفرنجة .

افتخار الدولة : قلت لك اختصر . أين الأمير الأفضل الآن ؟ متى سيحضر كى يعاوننا على التخلص من الفرنجة ؟

الرسول : لا نستطيع تحديد ذلك بالضبـــط .. فظروف الطريق صعبة للغاية وتعلم أن جبال سيناء ليست سهلة العبور لجيش كبير يحمل عتادا ضخما . وقد أتيت لأخبرك بأن قائدنا المعظم قد غادر القاهرة على رأس جيش كبير فى طريقه إلى بيت المقدس .

افتخار الدولة : غادر القاهرة .. غادر القاهرة .. المفروض أن يكون قد تركها منذ شهر .. وتأتى لى اليوم لتقول لى أنه غادر القاهرة .. يا فرحتى .. المسألة مسألة ساعات بل ربما دقائق .. وتقول لى غادر القاهرة .. (يصمت قليلا ثم يقول وكأنه يخاطب نفسه) عندما اجترأ الفرنجة وعبروا نهر الكلب

تصوريت أن الخليفة المستعلى بالله لن يقبل الاستهزاء به . فهم يعلمون تمام العلم أن نهر الكلب هو الحد الفاصل بين أراضى الدولة الفاطمية وأمارات السلاجقة فى الشام وفلسطين . لكن أحداً لم يُحرك ساكنا .. وعندما وصل الفرنجة على مشارف القدس لم يساورنى أقل شك فى أن الأفضل شاهنشاه أمير جيوش الدولة الفاطمية المهيبة سيكون إلى جوارنا خلال أيام لنعطى للفرنجة درسا لا ينسوه فيعودوا إلى بلادهم مهزومين مدحورين يجرون اذيال الخيبة والعار . لم يدر بخلدى ولو للحظة واحدة أننا سنعيش أربعين يوما تحت حصار ملعون وأن يكون بيت المقدس على وشك السقوط بين أيدى الكفار كالثمرة الناضجة .. والآن تقول لى أنه علينا أن نستمر فى الصمود بضعة أيام أخرى ؟ كيف ؟ ألا يعرف أمير الجيوش إمكانياتنا المحدودة ؟ ألا يعرف العتاد والقوة التى يمتلكها الفرنجة والتى لا قبل لنا بها ؟ أجب .. لماذا أصابك الصمت ؟

الرسول : يا سيدى إن مولاى الأفضل يسير على رأس أكثر من ثلاثين الف مقاتل وآلاف من الخيول والمجانيق والعتاد الثقيل ولا يمكنه أن يتحرك بسرعة أكبر من هذا .. وأنتم فى هذا البرج المنيع يمكنكم أن

تصمدوا بضعة أيام حتى يصل مولاى . لقد نجحت عكا فى أن تكون قلعة منيعة أمام جيوش الفرنجة حتى اضطروا إلى فك الحصار عنها وصمدت انطاكية أكثر من سبعة أشهر قبل السقوط بين أيدى الفرنجة ولم تسقط إلا بالغدر والخيانة . فكيف ....

افتخار الدولة : اسكت .. كأنى أرى سيدك يتحدث أمامى .. فيده فى الماء البارد وليست فى أتون هذه النار الحارقة التى نكتوى بها هنا منذ أربعين يوما . لم يمر يوم واحد منها إلا وقام فيه الفرنجة باستعراض للقوة أو بمحاولة لاختراق دفاعاتنا . لم يمر يوم واحد إلا وسمعنا أصواتهم الكريهة وشعرنا بنذير الشؤم يحوم فوق رؤوسنا . لكن سيدك يجلس فى قصره ولا تهتز له شعرة لما يجرى لنا . نعم .. سقطت انطاكية بالغدر والخيانة وسوف تسقط القدس بالغباء والتخلف .. هل عندك ما تضيفه من قبل سيدك ؟

الرسول : لا يا مولاى .. أنه يناشدك الصمود إلى أن يحضر بقواته بإذن الله .

افتخار الدولة : وأنا أناشدك أن تصمت وأن تتركنا الآن .

الرسول : سمعا وطاعة يا مولاى .. ما أنا

إلا رسول أحمل رسالة كنت أفضل ألا أنقلها فى هذه الظروف العصيبة . والله معكم ومعنا .

افتخار الدولة : حسنا .. اتركنا الآن . (ينظر إلى الحارس) قدموا له الطعام والشراب .. فلا ذنب له فى الأخبار المشئومة التى يحملها .

(يخرج الرسول) . .

افتخار الدولة (يمشى كالتائه ذهابا وايابا ثم يتوقف فجأة) : أين هند .. أدخلوها على الفور .

(يخرج الحارس مسرعا) .

افتخار الدولة : يا حسان .. ارسلوا امدادات إلى المكان الذى يتركز فيه هجوم الاعداء . فلا يجب أن يضعوا قدما واحدة داخل أسوار المدينة مهما كان الثمن .

(يدخل عبد الرحمن فجأة ومن ورائه على والجرجانى وعلى مظهرهم وثيابهم آثار مشاركتهم فى المعركة) .

حسان : عبد الرحمن .. ما الذى حدث ؟

عبد الرحمن : وقع ما كنت أخشاه .

افتخار الدولة : ماذا حدث يام عبد الرحمن ؟ تكلم .

عبد الرحمن : لقد نجح الفرنجة فى اختراق السور وبدأوا يدخلون المدينة بالفعل .

على : قاومناهم كالأسود لكنهم تفوقوا علينا بعددهم الأكبر وعتادهم المتطور .

الجرجانى : القتال يدور الآن داخل أسوار أورشاليم .

افتخار الدولة (بعد لحظة صمت ينظر الكل خلالها إليه انتظارا لرد فعله) : إذن .. لم يعد أمامنا إلا الصمود فى هذا البرج حتى يأتى الفرج من عند الله . يا رجال لقد كتب علينا أن نقاتل حتى الشهادة .. جهزوا كل ما لدينا من عتاد للدفاع عن محراب داوود فيبدو أننا نستعد لخوض المعركة الأخيرة .. لكن والله لن نبرح هذا المكان هكذا .. فإن كان قد كتب للفرنجة أن ينتصروا لحكمة لا يعلمها إلا الله فسوف يدفعون ثمن هذا الانتصار غاليا .. وسأسهر شخصيا على أن يكون ذلك .

(تدخل هند ويخرج الجميع فلا يبقى سوى افتخار الدولة وهند) .

افتخار الدولة : تعالى يا هند .. اقتربى يا حبيبتى .

هند : ماذا بك يا مولاى ؟ وجهك شاحب كما لم أره

من قبل وكأن الدماء قد هربت منه .

افتخار الدولة : يبدو أن لحظة الحقيقة التى كنت أخشاها حانت كالقدر المحتوم .. قد يتأخر أحيانا عن موعده المرتقب لكنه يهوى على رأس الإنسان فى اللحظة التى لا يتوقعه فيها والتى ارتخت عندها كل حواسه الدفاعية ..

هند : ما الذى حدث يا مولاى ؟

افتخار الدولة : كانت عندى قناعة راسخة أن زعماء أمة الإسلام لا يمكن أن يتركوا بيت المقدس يسقط فى أيدى أعداء الله .. لا يمكن أن يتركوا المسجد الأقصى وقبة الصخرة ملكا لمن يدنسها . كنت واثقا كالطفل الذى يواجه الخطر وتشخص أمامه صورة والديه فتدخل الطمأنينة فى قلبه لأنه على يقين أنهم لن يتركوه وحده وسينقذوه فى اللحظة الأخيرة قبل أن يلحق به الأذى . لم تكن عندى ثقة بالأفضل .. فأنا أعرف ما يكنه لى من مشاعر وأعلم أن ما يحركه هو مصلحته الشخصية قبل أى شىء آخر .. لكنى كنت أضع ثقتى كاملة فى الخليفة المستعلى بالله أمير المؤمنين وخليفة الدولة الفاطمية أقوى دولة على ظهر الأرض . وكنت أثق فى الخليفة العباسى المستظهر بالله رغم ضعفه وهوان دولته . كنت ...

هند : مولاى .. القلق يأكل قلبى من كلامك الغامض . ما الذى استجد لتقول هذا ؟ أرحمنى وقل لى ما يحدث .

افتخار الدولة : جيش الأفضل الذى كنا ننتظره من لحظة إلى أخرى لازال على بعد أيام طويلة من هنا ولم نعد قادرين على صد هجوم العدو الذى اخترق دفاعاتنا بالفعل وبدأ القتال يدور داخل المدينة . قد يحمينا هذا البرج بضع ساعات أو بضعة أيام أخرى إذا حالفنا الحظ .. فبوسعنا أن نمطر الفرنجة بوابل من النار والحجارة والسهام فيتراجعون انتظارا للحظة أفضل لأنهم واثقون من النصر . لم يعد هناك أى مخرج .. صرنا محاصرين كالفئران ولم يعد بوسعنا إلا أن نعض أقدام مهاجمينا فتؤلمهم دون أن نجهز عليهم .

هند : يا حبيبى .. أنا واثقة من أنك ستفعل ما عليك أن تفعله وتواجه قدرك بالرجولة التى أشعرتنى بها فى الأشهر الستة الماضية . كم كنت أتمنى أن يطول الحصار حتى تظل قريبا منى ولا أفتقد وجودك إلى جوارى . فهذا الحصار قد قربك منى وجعلك تفتح لى قلبك كما لم تفعل من قبل . وعند غروب الشمس فى كل يوم كنت أحلم فى يقظتى أننى أمسك بأشعتها

كالخيوط بين أصابعى أجذبها ناحيتى فيتوقف سيرها المحتوم فى طريقها إلى الاختفاء وراء الأفق البعيد فى مكان مجهول . لكنها كانت تسير سيرها دون رحمة أو التفات لشخصى الضعيف ولرغبتى المجنونة .

افتخار الدولة : يا حبيبتى لقد حانت لحظة الاختيار المرير الذى كنت أتمنى أن نرحم منه . فلابد أن ترحلى من هنا إلى مكان أمين .

هند : أرحل من القدس ؟

افتخار الدولة : سأدبر رحيلك على الفور فلا أدرى ما الذى يخبئه لنا القدر .

هند : مولاى .. لقد تحدثنا فى هذا الأمر من قبل وقلت لك بوضوح أننى لن أغادر القدس . لقد ولدت هنا وسأموت على هذه الأرض ولن أدفن إلا فى ترابها .

افتخار الدولة : هند .. ماذا جرى لك ؟ لقد تحدثنا فى هذا الموضوع وهو لازال احتمالا بعيدا . تحدثنا عن أمر جائز الحدوث نأخذ فيه قرارات تتحكم فيها العاطفة والحنين . لكن الأمر مختلف اليوم اختلاف الليل والنهار . لم تعد هناك احتمالات وتوقعات . الفرنجة سيكونون هنا خلال ساعات أو أيام قليلة فى أفضل الفروض . والقرار فى هذه الساعة لا يحكمه

إلا العقل والحكمة . يجب أن ترحلى . لا يوجد لك أقارب هنا كما قلت لى . فما الذى يربطك بهذه الأرض ؟

هند : ما الذى يربطنى ؟ ... كل شىء .. الهواء المحمل برائحة شجر الزيتون الذى أستنشقه كل مساء لا أعتقد أن له مثيلا فى أى مكان وأشعر أن أنفاسى ستختنق حتى الموت لو دخل فى رئتى أى هواء آخر . الدم الذى يجرى فى عروقى أرتوى من مياه هذه الأرض ولحمى دبت فيه الحياة من احتكاكه بهواء القدس وبأرضها الطيبة . ما الذى يربطنى ؟ الناس الطيبون الذين لا أعرفهم وربما لم أرهم ولكنى نشأت فى وسطهم واشتد عودى بفضل عرقهم وعمل كل واحد منهم . رحيق الزهور وعبق الجو النقى بعد سقوط المطر وصوت الريح يهز أوراق الأشجار فى الشتاء وقشعريرة البرد التى تسرى فى جسدى وأنا أتنشف بعد حمام المساء . كل هذا يربطنى بالقدس .. فهل بوسعك أن تفهم ذلك ؟

افتخار الدولة : ما هذا الهراء يا هند ؟ هل فقدت عقلك ؟ كل ما تتحدثين عنه موجود فى أى مكان حتى فى بلاد الفرنجة ..

هند : لا .. لا .. لن يكون له نفس المذاق ولا نفس الرائحة .. وما معنى الحياة إذا فقد الإنسان مذاقها ؟

افتخار الدولة : ما معنى الحياة ؟ لا أستطيع أن أجيبك على هذا السؤال .. لكنى أرى الناس يتكالبون عليها كما هى .. حتى الذين أحنت الشيخوخة ظهورهم ولم يعودوا يستمتعون بأى شىء .. حتى الذين عاشوا طوال عمرهم فى مذلة الفقر والحرمان ولم يروا يوما حلوا واحدا منذ وجدوا على ظهر هذه الأرض .. حتى المرضى الذين يصرخون من عذاب الألم ولم يعد هناك رجاء فى شفائهم .. أرى كل هؤلاء يتشبثون بالحياة حتى الرمق الأخير ويجزعون عند مواجهة شبح الموت كمن يقف وحيدا أمام أسد يزأر من شدة الجوع فترتج أرجاء الغابة من صوته المهيب . وأنت .. أنت التى أنعم عليها الله سبحانه بكل هذا الجمال الساحر .. أنت التى لم تتجاوزى العشرين من عمرك بعد لا تهمك الحياة وتعرضين عنها لأسباب واهية لا يقبلها عاقل ولا مجنون .

هند : لا تضيع وقتك معى بلا فائدة .. ان لديك تأمين دفاع هذا البرج الذى لن يبقى لنا غيره بعد قليل . أما أنا فقد اتخذت قرارى ولن أتراجع عنه .

افتخار الدولة : حبيبتى .. أرجوك أن تعيدى التفكير فى هذا القرار المجنون الذى لا معنى له . أنى أشم رائحة الموت وقد بدأت تخيم على هذا المكان .. فارحمى نفسك وأرحمينى .. نحن نضيع وقتا ثمينا قد نندم عليه .

هند : قلت لك أن الأمر محسوم . سأبقى وليسر على ما يسرى على الجميع .

افتخار الدولة : هند .. ألا تعرفين ....

(يدخل الحارس) .

الجندى : سيدى .

افتخار الدولة : ماذا ؟ كيف تجرؤ على مقاطعتى فى هذه الساعة ؟

(يدخل عبد الرحمن والجرجانى وحسان وعلى وبعض الفرسان وينظر الجميع إلى افتخار الدولة باهتمام شديد) .

افتخار الدولة : ما الذى يحدث ؟

الحارس : هناك فرسان من الفرنجة يطلبون الأمان لدخول البرج . يقولون أنهم يحملون رسالة من كبيرهم ويريدون نقلها لمولاى .

افتخار الدولة : رسل من قبل قائد الفرنجة .. أى قائد ؟

هند : لا تقابلهم .. إنهم يريدون المساومــة .
وما الذى يمكن أن تعطية إلا الاستسلام ؟
(الوجوم والصمت ينتابان جميع الحاضرين) .
الجندى : انهم على أبواب البرج . فهل نتركهم

يدخلون أم نردهم فيعودوا من حيث أتوا ؟
(افتخار الدولة ينظر إلى أعلى وكأنه يستجدى الهاما من السماء) .
الجرجانى : لنستمع إليهم يا مولاى . فربما جاءوا بمقترحات تستحق النظر . فإن لم تعجبنا رددناهم إلى من أرسلهم ..
حسان : نعم يا سيدى .. لن نخسر شيئا بلقائهم ومعرفة ما يريدون . لقد جاءوا إلى هنا بأقدامهم وهذا يعنى أنهم راغبون فى التفاوض ومستعدون لتنازلات يمكن أن نستفيد منها .
افتخار الدولة : معكم حق .. دعوهم يدخلون .
(يخرج الحارس) .
انتظرينى يا هند بالخارج قليلا حتى أعرف ما الذى يريده منى قادة الفرنجة .
(تخرج هند) .
(يوجه الحديث إلى فرسانه) لو أعطوا الأمان

لسكان القدس ولو قبلوا اشرافنا على المسجد الأقصى وباقى مقدساتنا هنا فإنه من الممكن التفاهم معهم حول شروط خروجنا من محراب داوود . ولن نبرح هذا المكان إلا معززين مكرمين نحمل سلاحنا ونركب خيولنا .

الجرجانى : مولاى .. أنت قائد مرهوب الجانب والفرنجة يعلمون ذلك ولا بد أن يأخذوه فى الاعتبار لكنى أرى أن الموقف لا يسمح لنا بفرض كل شروطنا عليهم . فلن يكون هناك بد من التنازل حتى لا نفقد كل شىء .

عبد الرحمن : التنازل .. التنازل عن ماذا يا جرجانى ؟ التنازل عن حقوقنا وحقوق الدولة الفاطمية فى بيت المقدس وآمال شعبنا الطيب الذى وضع كل ثقته فينا .. ومن فوضنا بالتنازل عن أى شىء ؟ ان مهمتنا هى الدفاع عن بيت المقدس والمقاومة حتى النصر .

افتخار الدولة : كفانا شعارات جوفاء يا عبد الرحمن .. انها لن تنفعنا فى وقت شدة كهذا . كان وقتها عندما تصورنا أن جيش الأفضل فى الطريق . أما الآن فنحن وحدنا أمام قدرنا المحتوم .

أما من فوضنا بالتنازل فهو الذى تركنا هنا دون عون أو مساعدة فى الوقت الذى يتلقى فيه الفرنجة الامدادات عبر البحر .

الحارس : مولاى . رسل الفرنجة .

(يدخل ثلاثة رجال يرتدون ملابس الصليبيين ولهم لحى طويلة صفراء أو فاتحة اللون) .

المبعوث الأفرنجى : السلام عليكم

عبد الرحمن : سلام ؟ كيف ترد هذه الكلمة على لسانك وقد جئتم تنشرون الموت والدمار فى بلادنا عن أى سلام تتحدث ؟

المبعوث : جئنا من طرف سيدنا روبير دى سان جيل كونت دى تولوز القائد المعظم نحمل رسالة لقائدكم . أين هو ؟

الجرجانى : ما عليك يا رجل .. ما هى رسالة قائدكم ؟

المبعوث **(يتهامس مع زميليه فيهزان رأسيهما إيجابا) :**

تعلمون أننا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار ودخول أورشاليم وهذا تنفيذ لإرادة الرب . ولم يعد لديكم أدنى فرصة للصمود فى هذا البرج . لذا نرى

أنه من مصلحتكم الاستسلام فورا حقنا للدماء .

عبد الرحمن : أهذه رسالتك ؟ أتجشمتم مشقة الحضور إلى محراب داوود لنقل هذه الرسالة الفارغة ؟ .. ان كان الانتصار أمرا هينا عليكم بهذه الصورة فما الذى أتى بكم إلى هنا ؟ أحبا فينا ؟ هل تملكت الإنسانية من قلوبكم إلى هذا الحد ؟ أنتم لا تعرفون الرحمة .. أنسيتم ما فعلتم فى كل المدن التى استوليتم عليها ؟ لم يسلم رجل أو طفل أو شيخ أو امرأة من أذاكم . أتحسبون أننا لا نعلم ما فعلتم بمعرة النعمان تلك المدينة الآمنة التى استبحتم رجالها ونساءها ثم لم تكتفوا بذلك بل أكلتم لحوم البشر فيها بعد شيها وكأنها خراف العيد .

المبعوث : لم نحضر للنقاش ولا للتفاوض . فنحن نحمل رسالة واضحة .. أما أن توافقوا عليها أو تقبلون تحمل عواقب رفضكم ولا يخفى عليكم ما هى تلك العواقب .

عبد الرحمن : تأدب يا رجل .. أجئت تهددنا ؟ والله لندق عنقك وليكن ما يكون بعد ذلك ..

الجرجانى : أسكت يا عبد الرحمن ودعنا نستمع إلى رسالتهم بالكامل .

عبد الرحمن (ينظر إلى افتخار الدولة) : مولاى القائد ان هؤلاء لن يرحمونا فى كل الأحوال . وكم من المرات نكصوا فيها عهودهم وقتلوا وانتهكوا الأعراض بعد أن أعطوا الأمان .. فلنقاوم حتى الموت فهذا أشرف لنا ..

(صمت) .

المبعوث (ينظر إلى افتخار الدولة ويقترب منه بعد أن تعرف عليه) : ما رأيك أيها القائد ؟

افتخار الدولة : أنت تتحدث العربية بطلاقة غريبة . من علمك لغتنا ؟

الرسول : أنا لا أتحدث لغتكم فقط ولكنى اقرؤها كذلك ..

افتخار الدولة : فعلا .. وماذا قرأت ؟

الرسول : قرأت الكثير من كتبكم .

افتخار الدولة : مثلا ؟

الرسول : قرأت القانون فى الطب وكتاب الشفاء لابن سينا وقرأت الخالص لجابر بن حيان .

افتخار الدولة : أهذا كل ما قرأت ؟

الرسول : لا .. قرأت آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى وكذلك رسالته فى معانى العقل وغير ذلك ..

على : أحقا قرأ كل هذا ؟

الجرجانى : ولماذا يقرأ كتبنا أليس عندهم ما يقرأوه فى لغاتهم ؟

الرسول : عندنا .. لكن كتبكم بها علم أكبر ونحن الآن فى حاجة إلى الاستفادة منه . وقد عكفت أكثر من عشر سنين على تعلم العربية بعد أن زرت البيت المقدس .

افتخار الدولة : تستفيدون من علمنا بالقتل والذبح وسفك الدماء ؟ لماذا لا ترسلون من يتعلم عندنا فى سلام دون حاجة إلى القتال ؟

الرسول : لابد أن نحرر أورشاليم ويكون قبر يسوع بين أيدينا .. هذا ما أراده الرب وهذا ما سيكون .. فاورشاليم عندنا هى بؤرة الاتصال بين أرض الإنسان ومملكة السماء . وستكون بإذن الرب عاصمة المملكة اللاتينية فى الشرق .

افتخار الدولة : هذا حلم سادة الفرنجة لكنها ليست مشاعر شعوبكم المطحونة التى تعيش تحت وطأة الفقر والاستعباد .

المبعوث : أنت مخطىء ياسيدى .. فعندما أطلق البابا أوربان الثانى منذ أربعة أعوام نداءه فى مجمع كليرمون إلى المسيحيين فى كل مكان لتحرير أورشاليم

واستعادة قبر يسوع لم يكن يتصور أحد بالفعل أن الآلاف من أبناء المسيح سيهبون لتلبية هذا النداء . لقد ترك الناس البسطاء مدنهم وقراهم وتركوا أعمالهم ومصالحهم وأطفالهم ونساءهم وتوافدوا على مراكز التطوع أفواجا وهم على استعداد للتضحية بكل شيء من أجل تحقيق حلمهم الأعظم . لم يعد هناك جدوى من مقاومة زحفنا المقدس أيها القائد .. فنحن قادمون باسم الرب وبإرادته .

عبد الرحمن : لم تأتوا إلى هنا حبا فى المسيح عليه السلام بل أتيتم من أجل المغانم ومن أجل مكاسب الدنيا . أتيتم من أجل السبى والنهب والسلب .. ألم تنهبوا قرى ومدنا مسيحية فى طريقكم إلى هنا وأنتم تطلقون صيحة القتال التى اخترتموها لإرهابنا : هذا ما أراده الرب . ألم يحدث ذلك ؟ هل كان هؤلاء أعداء المسيح أيضا فى نظركم ؟

الرسول : أيها القائد .. لم يعد أمامنا وقت طويل .. علينا أن نعود برسالة واضحة وعاجلة إلى سيدى سان جيل . فما هو ردك ؟

افتخار الدولة : ردى على ماذا ؟ أنا لم أسمع شيئا بعد ..

الرسول : عليكم أن تغادروا البرج وتتركوا أورشاليم دون أية شروط .. وسيدى سان جيل يضمن لكم حياتكم ويؤمن لكم الذهاب إلى عسقلان . لكن عليكم أن تتخذوا قراركم بسرعة والتحرك الليلة عندما يحل الظلام .

افتخار الدولة : أترك المدينة مع جنودى ومعنا أسلحتنا ولن أغادرها إلا بعهد من قائدكم بعدم التعرض لأهل القدس الأبرياء وعدم استباحة القتل والسبى كما فعلتم فى المدن الأخرى التى وقعت بين أيديكم .

الرسول : أيها القائد .. يبدو أنك نسيت أنكم مهزومون وأن البرج سيسقط فى أيدينا لا محالة .. إنها مسألة وقت لا غير .. لكن سيدى سان جيل يحترم موقفك والشجاعة التى أظهرتها خلال الحصار ويريد أن يتعامل معك كعسكرى ويدعوك بالتالى إلى التخلى عن البرج حقنا للدماء .

افتخار الدولة : دعك من هذا الكلام .. ان سيدك يعلم تماما أن زملاءه قادة الجيوش الأخرى التى تحاصر بيت المقدس بدأت تدخل المدينة بالفعل وهو يريد التعجيل بالدخول هو الآخر حتى لا ينتشر بين العامة أن سان جيل أشهر قواد الفرنجة كان آخر من دخل القدس وآخر من أدى واجبه إزاء الكنيسة وتجاه

المسيح . لقد دمرنا البرج الخَشبى الذى تقدم به جنودكم ناحية أسوارنا بعد أن بنيتموه فى عشرين يوما وأنتم تحتاجون لعشرين يوما أخرى لبناء برج جديد . وسان جيل لا يريد أن يترك لغريمه جودفروا دى بويون دوق اللورين السفلى شرف دخول بيت المقدس قبله . وقد سمعت أن الدماء كانت تغلى فى عروق سيدك عندما ذاع صيت دى بويون وسط جيوش الفرنجة وشاع عنه أنه فصل رأس جمل ضخم عن جسده بضربة سيف واحدة .

مبعوث الفرنجة : لا يوجد خلاف بين سيدى سان جيل وباقى القادة .. لقد جاءوا جميعا لهدف واحد هو تحرير أورشاليم .

افتخار الدولة : تقصد استعباد بيت المقدس .. ومع ذلك فأنا أعلم أن سيدك يحلم منذ بدء الحصار بأن يكون أول من يدخل القدس فوق حصانه الأبيض . ونحن نقف له كالعظمة فى الحلق . لا تتصور أننى لا أفهم كل هذا .. فاذهب وقل لسيدك أننى لا أقبل إلا بهذه الشروط .

مبعوث الفرنجة (يتشاور مع زملائه) : نحن مفوضون تفويضا واضحا من قبل سيدنا سان جيل .. واعلم أننا إذا خرجنا من هنا دون اتفاق فلن نعود

إلا بأسنة الرماح وساعتها لن يرحم أحد أيا كان . فهذه هي الفرصة الوحيدة .. ونصيحتنا أن تلتقطها قبل فوات الأوان . لن نعطيك أى تعهد بشأن شعب القدس ولا بما سنفعله هنا .. كل ما نعطيه لك هو نجاتك شخصيا مع مجموعة من رجالك المقربين .

افتخار الدولة (يفكر قليلا) : اتركونى لحظات حتى أتشاور مع رجالى .

الرسول : لا وقت للتشاور .

افتخار الدولة : قلت اتركونى على الفور .. وإن لم يعجبك فخذ زملاءك وارحلوا من البرج حالا .. فنحن والله على استعداد للقتال حتى الموت .

الرسول (يتهامس مع رفاقه) : حسنا .. لا تغضب أيها القائد . لكن نرجو ألا تجعلنا ننتظر كثيرا .

(يخرج وفد الفرنجة) .

افتخار الدولة : ما رأيكم أيها الرجال ؟

على : مولاى .. أرى أن كلامهم معقول من حيث المنطق .. فلم يعد هناك أقل أمل لنا فى صد هجماتهم دون عون خارجى وسيزيدهم القتال توحشا ورغبة فى الانتقام .. لكن بالى ليس مرتاحا .. فقد تراجع الفرنجة عن وعودهم كثيرا ولم يحترموا كلمتهم .

الجرجانى : إنما سان جيل هذا رجل كبير يزيد عمره عن الستين ويقال أن له لحية بيضاء مهيبة وأنه ليس كبقية القادة المعروفين بالشراسة والحيوانية . فهو رجل يحترم شرف الكلمة ولا يأمر باستخدام العنف إلا إذا لزم الأمر .

عبد الرحمن : كفى هراءا .. هل تحولت القضية إلى البحث فى أمانة العدو وشرفه ؟ هل المشكلة هى أن سان جيل هذا رجل يحترم كلمته أم ينكص وعوده ؟ أنسيتم أنهم خدعوا امبراطور بيزنطة ألكسيس كومنين وهو منهم فما بالكم بأعدائهم الألداء ؟ لكن هذه قضية مغلوطة .. فالقضية الحقيقية هى نحن وليس سان جيل أو غيره من الفرنجة .. إننا نتهرب من أداء واجبنا ونترك مواقعنا التى اؤتمنا عليها لندافع عنها حتى قطرة دمائنا الأخيرة . إننا نتخلى عن شرف القتال فى سبيل الله وفى سبيل الحق .

افتخار الدولة : قلت لك من قبل كفانا شعارات يا عبد الرحمن . الكل يعرف من أنا .. والكل يعرف أن افتخار الدولة لا يهرب من القتال ولو كان عدوه الشيطان ذاته . لكنه يعز على نفسى أن تكون نهايتى لسبب لا يد لى فيه . يعز على أن أموت وأطلب من

رجالى أن يضحوا بحياتهم لأن أمراءنا لهم حسابات لا علاقة لنا بها .

الجرجانى (موجها كلامه إلى عبد الرحمن) : هم الذين تخاذلوا وتريدنا نحن أن ندفع الثمن ؟

افتخار الدولة : لو تكاتف الحكام والأمراء ووحدوا كلمتهم لهانت علىّ حياتى وحياة رجالى ولقدمت عمرى فداء لحماية بيت المقدس أو أى موقع آخر يوكل إلىّ الدفاع عنه . لكنى أعلم مالا تعلمون . أعلم أن خلافاتهم على السلطة والجاه وحقدهم المتبادل وخوفهم من بعضهم البعض ونظرتهم الضيقة لمصالحهم هى الأسباب التى حالت دون تشكيل جيش قوى يمشى على الفرنجة ويكسر شوكتهم . ولو أجتمع زعماؤنا على كلمة واحدة لسحقنا هؤلاء الفرنجة دون أدنى مشكلة .

على : وقد فعلناها من قبل يا مولاى ..

افتخار الدولة : أتعلمون أنه فى الوقت الذى كنا نتلهف فيه على أخبار جيش الأفضل وصلت إلى ميناء يافا عشر سفن للفرنجة محملة بالأخشاب والعتاد والرجال ولولا هذا الإمداد الذى هبط عليهم من السماء لما استطاعوا بناء الأبراج وما استطاعوا أن يتفوقوا علينا ولصمدنا أمامهم عشرة أشهر دون أن تهتز لنا شعرة .

(همهمة وسط الفرسان) .

عبد الرحمن : متى حدث هذا وكيف لم نعلم به ؟

افتخار الدولة : بعد الهجوم الذى قام به العدو فى الأيام الأولى من تمركزهم حول المدينة ذلك الهجوم الذى سحقناه ورددناهم على أعقابهم أصبح حال قوات العدو أقرب إلى الجيوش المحاصَرة منها إلى الجيوش المحاصِرة . فقد شعروا بوطأة نقص المياه والعتاد اللازم والرجال المدربين على التحضير لشن الهجوم . ولم تمض أيام قليلة بدأ خلالها الشك يتسرب إلى قلوبهم حتى هلت السفن العشر فانقلبت الموازين لصالحهم ..

عبد الرحمن : وكيف لم نعرف بهذا ؟ لِمَ لَمْ تخبرنا ؟

افتخار الدولة : لقد أخبرت على والجرجانى ثم أمرتهم بعدم نشر هذا الخبر خوفا من أن يؤثر على معنوياتكم ومعنويات رجالكم . ولو بذل القائمون على أمورنا أقل جهد لإرسال الإمداد لنا أو لمنع وصول الإمدادات لعدونا لكنت أنا الذى أعرض الأمان اليوم على سان جيل وغيره من قادة الفرنجة ليغادروا بلادنا ويعودوا من حيث أتوا بدلا من أن نعيش هوان الخضوع لرغبات العدو وشروطه المهينة . لذا فقد أتخذت

قرارى .. سأقبل عرض سان جيل وسنرحل من هنا إلى عسقلان وهناك سنبحث عن الوسيلة التى نعود بها إلى القدس ظافرين بعون الله .

الجرجانى : هذا قرار حكيم يا مولاى .

افتخار الدولة : هيا يا عبدالرحمن .. إنى أدرك ما تشعر به لكن هناك لحظات فى حياة الإنسان يضطر فيها إلى أن يحنى رأسه للعاصفة حتى تمر بسلام ثم يستعيد قواه بعد ذلك ويعمل على تحقيق ما يريد .

عبد الرحمن : اسمح لى ألا أوافقك على هذا المنطق أيها القائد . لقد دخلت هذا البرج وأنا عاقد العزم على ألا أخرج منه إلا منتصرا أو محمولا إلى القبر . وما حدث لا يزيدنى إلا إصرارا على موقفى .

افتخار الدولة : ماذا تقصد يا عبد الرحمن ؟ أتبقى وحدك فى البرج ؟ هل أصابك مس من الجنون ؟

عبد الرحمن : لا .. بل قررت أن أذهب إلى نهاية قناعتى . فأنا مؤمن بأن مهمتى هى الدفاع عن هذا البرج وعدم تسليمه للفرنجة مهما كلفنى ذلك حتى ولو كان الثمن حياتى ذاتها . أنا جندى يا مولاى وأعلم منذ اليوم الأول الذى اخترت فيه هذا الطريق أنه سيأتى اليوم الذى أضطر فيه إلى المخاطرة بحياتى من أجل الدفاع عن شرف بلادى وبقاء أمتى .

افتخار الدولة : يا عبد الرحمن أنت من أفضل المقاتلين فى دولتنا وبوسعك أن تخدم بلادك وأن تعز راية الإسلام إن بقيت حيا .. فهناك معارك كثيرة قادمة ليست هذه المعركة سوى مقدمة حزينة لها وسنحتاج فى المعارك القادمة إلى شجاعتك وجلدك فى القتال . أما موتك فلن يفيد أحدا وستكون تضحيتك بحياتك خسارة عبثية لك ولأهلك ولكل من تحب .

عبد الرحمن : كل شىء يهون فى سبيل أداء واجبى نحو دينى وأمتى ..

افتخار الدولة : إن كنت تريد أن تقاتل حقا فى سبيل دينك وأمتك تعالى معى واحفظ حياتك ثم استعد للتضحية بها حين تكون التضحية مجدية لوطنك . هيا يا عبد الرحمن .. الكل يعرف شجاعتك لكنها لا تبلغ حد أن تبقى وحدك لمواجهة جيش سان جيل .

أحد الفرسان : لن يكون وحده يا مولاى . لقد قررنا أن نكون معه أمناء على المهمة التى أوكلت إلينا حتى النهاية .

افتخار الدولة : قررنا .. من أنتم الذين قررتم ؟

عبد الرحمن : لقد تداولت بالعمل مع مجموعة من الفرسان واقتنع بعضهم بضرورة أن يبقى أحد للدفاع

عن محراب داوود حتى لا يقال أننا هربنا جميعا كالنساء .

افتخار الدولة : كيف تجرؤ على مخاطبتى بهذا الأسلوب يا عبد الرحمن ؟ أتتهمنا بالجبن والهروب كالنساء ؟

الجرجانى : لا يا مولاى لا سمح الله .. هو لا يقصد ذلك .

افتخار الدولة : من حظك أننا فى هذه الظروف . فلو أننا فى موقف آخر لأمرت بقطع رقبتك على الفور .

عبد الرحمن : لو كنا فى موقف آخر لما خرجت من فمى مثل هذه الكلمات يا سيدى القائد .

حسان : إن عبد الرحمن يكن لك أعظم الاحترام والتبجيل مثلنا جميعا يا مولاى .. لكنك تعرفه .. فلسانه يسبق دائما تفكيره .

افتخار الدولة : حسنا يا عبد الرحمن .. ابقوا إن شئتم لكنى أقول لكم إن حياتكم ستذهب هباء ولن يسمع عنكم أحد .

عبد الرحمن : أنت مخطىء يا مولاى . لن تذهب دماؤنا هدرا كما تتصور . ففى كل أمة قامت لها قائمة

قدم البعض من أبنائها حياتهم قربانا لحريتها وقد قررنا أنا وإخوانى أن نضحى بأنفسنا حتى تظل ذكرى تضحيتنا حية فى ضمير الأجيال القادمة . قد تتوه أسماؤنا وسط زحام التاريخ .. قد نصبح أبطالا بلا هوية . لكن ما نقوم به لن يهدر ولن يضيع هباءا كما تتصور . افعل أنت ما تظن أنه التصرف الأصلح .. أما أنا وزملائى فقد اخترنا طريقنا .

افتخار الدولة : أخشى أن يكون طريقكم قصيرا للغاية يا عبد الرحمن وأغلب الظن أن سيركم فيه سينتهى فى هذه الليلة ولن تطلع عليه شمس الغد .

عبد الرحمن : ربما .. لكنه الطريق الذى يريح ضمائرنا ويلائم مبادئنا .. وعلى كل حال فلن نسير مثلك فى الطريق إلى عسقلان . هيا أيها الرفاق .

(يخرج ومعه بعض الفرسان) .

افتخار الدولة : هذا المجنون سيندم بعد قليل على قراره الأحمق . لكن ندمه سيأتى متأخرا .. وسنكون نحن فى الطريق إلى عسقلان خارج هذا الجحيم . لن يعيش حتى يعرف أن تضحيته كانت مجردة من أى معنى وأن اختيارنا كان هو الصحيح . فسنظل على قيد الحياة لنقاتل من أجل ديننا ووطننا .

الجرجانى : لقد أعطيت له أكثر من فرصة ليرجع عن عناده يا مولاى .

افتخار الدولة : ومع ذلك فلا أملك إلا أن أعجب بشجاعته . لقد حاولت أن ألمح فى عينيه بريق تردد أو شاردة شك فى أمره لكنى لم أجد إلا شرارة العزم والإصرار . الله معك يا عبد الرحمن أنت ورفاقك . والآن ادخلوا رسل الفرنجة .

(يدخل الفرنجة) .

افتخار الدولة : لقد اتخذت قرارى .. أنا على استعداد أن أغادر البرج مع رجالى لكن بشرط أن يتعهد الأمير سان جيل شخصيا بالوفاء بكلمته ويعطينا الأمان حتى نصل إلى عسقلان . وفى كل الأحوال فإننى لن أتحرك من هنا إلا بسلاحى وعلى فرسى وكذلك رجالى .

الرسول : اسمح لى أن أهنئك أيها القائد .. فقد استجبت لصوت العقل ورفضت منطق اليأس الذى يؤدى أحيانا بصاحبه إلى اتخاذ قرارات حمقاء .. نحن نوافق على رغباتك التى عبرت عنها .. لكن عليك التعجيل بالرحيل . فسيدى الكونت دى سان جيل يريد أن يكون داخل محراب داوود هذه الليلة .

افتخار الدولة : قلت لك لن أتحرك إلا بتعهد شخصى من سيدك بالوفاء بكلمته .

الرسول : سيدى القائد .. نحن مفوضون تفويضا واضحا من مولاى سان جيل . وسأدع الفارس جيوم دى بارتيليمى يؤكد لك ذلك بنفسه وسأقوم بدور الترجمة .

(يتحدث مع الفارس الأفرنجى) .

الرسول : إنه يقول أن سيدى سان جيل هو الذى عرض بنفسه فكرة مغادرتكم القدس مع كل التكريم المناسب لعسكرى كبير مثلك وأنه يأخذ على عاتقه شخصيا السهر على حياتك وحياة رجالك حتى تصلوا إلى عسقلان . وعندما نعود إليه بخبر موافقتك على الرحيل ستأتى قوة من رجالنا على الفور لترافقكم حتى مشارف عسقلان .

افتخار الدولة : أريدك أن تحمل رسالة شخصية منى إلى سيدك سان جيل .. قل له أن يتذكر اليوم ما فعله سيدنا عمر بن الخطاب حين دخل بيت المقدس على ظهر ناقته البيضاء فاتحا للمدينة المقدسة بإذن الله . يومها طمأن بطرك الروم المسيحيين بأنه يؤمن حياة سكان مدينة السلام فلم ترق قطرة دماء واحد من

أهلها ورفض أن يصلى فى كنيسة القيامة خوفا من أن يحولها المسلمون من بعده إلى جامع بحجة أن عمر أدى الصلاة بها .. قل له ...

المبعوث : نعم أيها القائد سأنقل رسالتك إلى سيدى لكنى استأذنك فى الرحيل على الفور لأن الوقت يمر بسرعة وسيقلق سيدى سان جيل من تأخرنا .. وأرجو أن تستعدوا لمغادرة البرج بحراسة فرساننا ..

افتخار الدولة (يهز رأسه فى أسى) : يبدو أن الأقدار قد استجابت لكم هذه المرة .. لكن لتعلم وليعلم سيدك أن الحرب سجال وأن دخولكم بيت المقدس اليوم ليس نهاية المطاف . إنما هو بداية مواجهة طويلة لن تخرجوا منها منتصرين .

الرسول : قل ما شئت إن كان ذلك يريح ضميرك أيها القائد .. لكن أورشاليم التى ندخلها اليوم منتصرين ستظل فى أيدينا إلى الأبد بمشيئة الرب وستبقى العاصمة الأبدية للمملكة اللاتينية فى الشرق ..

افتخار الدولة : بيت المقدس فى قلب العالم العربى .. ولن يكون لغير العرب .

(يخرج رسل الفرنجة) .

المشهد الخامس

(حجرة صغيرة نسبيا تقف فى وسطها هند . الحجرة بها عدة آرائك تبدو مريحة للجلوس .. يدخل عليها افتخار الدولة ممسكا بلفة ثياب بين يديه) .

افتخار الدولة : يا حبيبتى .. لقد أحضرت لك ملابس أحد الفرسان .. سترحلين معى بعد قليل إلى عسقلان وكأنكِ واحد من فرسانى .. هيا .. ارتدى هذه الملابس .

هند : مولاى .. يبدو لى أنك لا تريد أن تفهم .. أنا لن أتحرك من هنا . وإن كنت بالفعل فى حاجة إلى ملابس رجال فأرجو أن تعطيها لى .

(تأخذ من يديه الثياب التى دخل بها فيتركها لها بطريقة آلية ويبدو عليه الذهول) .

افتخار الدولة : هند .. ماذا دهاك ؟ ماذا دهاكم جميعا اليوم ؟

ما الذى يربطكم بهذا المكان وكأنه ملاذ من نار جهنم ؟ أعلم أن الطريق إلى عسقلان هو طريق المذلة والهوان لكنه الطريق الوحيد الذى يمليه صوت العقل . تعالى يا حبيبتى أتوسل إليك .. ارتدى هذه الملابس واتبعينى . أنت غير مدركة لما سيحدث هنا خلال ساعات قليلة .. سيتحول هذا المكان إلى بحر هادر من الدماء وسيشهد مجزرة بشرية لم يعرف التاريخ مثيلا لها . ستسيل الدماء فى الشوارع وكأنها أنهار وسترتفع الجثث فوق بعضها البعض وكأنها جبال .

هند : أرجوك يا مولاى .. لتكن آخر لحظاتنا معا بلا شجار . قل لى كلمات رقيقة .

افتخار الدولة : آخر ما كنت أتصوره أن تخذلينى أنت أيضا يا هند . أنا جندى نشأت على خشونة الحياة ولا أجيد فن تطريز كلمات الحب الرقيقة . لكنك تعرفين ما فى قلبى من مشاعر .. تعرفين أنك واحة

الدفء التى كنت التجىء إليها عندما يضيق صدرى بغباء المحيطين بى وبنفاقهم الفج وقلة حيلتهم . كنت أشعر أننى سأجدك دائما إلى جانبى عند الشدة . لكنك تتخلين عنى فى أشد وقت أحتاج إليك فيه .

هند : لن أتخلى عنك إلى آخر لحظة فى حياتى .. لكنك لا تدرك ما تطلبه منى .. إنك تريد أن تقتلعنى منْ جذورى . إنك تطلب منى أن ...

افتخار الدولة : يا هند .. لا تعذبينى أكثر من هذا .. لم يحدث من قبل أن توسلت إلى إنسان مهما علا شأنه ولو كان خليفة المسلمين . لكنى أتوسل إليك .. أتوسل إليك أن تعدلى عن قرارك المجنون . فعبد الرحمن وإخوانه يريدون البقاء ليقال أنهم كانوا أبطالا ولتتغنى بشجاعتهم الأجيال القادمة .

هند : أنا لست بطلة .. ولا أريد أن يتغنى أحد باسمى . لكننى قررت البقاء لأنه يستحيل علىَّ الرحيل ليس إلا .. وأعلم أننى أحببتك من كل قلبى ولا ألومك على قرارك وأفهم دوافعك .. لكن اتركنى أقرر لنفسى وأتحمل مسئولية مصيرى .

افتخار الدولة : للمرة الأخيرة .. افهمى أنهم

خانونا .. ولو كانت هناك فائدة من التضحية لكنت أول من يقدم رأسى على طبق من فضة .

هند : افهمنى أنت يا مولاى .. أنا لا يهمنى كل هذا . فقرارى لا علاقة له إلا بشخصى .. وأعلم أننى لا أضحى ولا أرى فى موقفى هذا بطولة أو عبرة لغيرى . كل ما أفعله هو أننى أسير وراء غريزتى وهى التى تملى علىَّ فى هذه اللحظة البقاء فى أورشاليم .

افتخار الدولة : حسنا يا هند ستندمين أنت الأخرى . لكن الزمن سيكون أسرع من مشاعرك . الوداع يا هند . أدعو لك من كل قلبى .. ولو حدثت معجزة من عند الله ونجوت من نار جهنم التى ستشتعل هنا بعد رحيلى فأنت ستعرفين طريقى .

هند : الوداع يا سيدى . سألاقى قدرى وقد مهدت نفسى على مواجهته مهما كان . ولو كتب الله تعالى لى النجاة فتأكد أن مشاعرى نحوك لن تتغير وستجدنى فى انتظارك فى بيت المقدس . الوداع يا حبيبى .

(يتعانقان) .

المشهد السادس

(سكان القدس يبدون وهم فى حالة قلق بالغ يتحول إلى فزع مع تطور الموقف) .

امرأة أولى : ما الذى يحدث ؟ أين الجنود ؟ لقد اختفوا جميعا ولم يعد هناك من يدافع عنا .

رجل ثانى : لقد قضى الأمر فيما يبدو .. ولم تعد هناك فائدة من القتال .

رجل أول : لقد تركت الساحة خالية للفرنجة .

امرأة ثانية : انظروا .. انظروا .. الحائط يسقط تحت ضربات الفرنجة . إنها النهاية .. إنى خائفة .. خائفة .

رجل رابع : تماسكى يا امرأة .. إن جسدك ينتفض وكأن عفريتا بداخله .

رجل ثالث : يا للكارثة . خيول الفرنجة دخلت الأرض المقدسة .

امرأة ثالثة : سيقتلونا جميعا .. لن يتركوا واحدا منا حيا .

رجل أول : إنهم ينتشرون فى كل مكان . اختبئوا . فلو رأونا سيذبحونا كالنعاج .

رجل ثانى : إنهم يتجهون ناحية المسجد الأقصى .

امرأة أولى : بيوت الله الطاهرة سيدنسها الفرنجة النجسين .

امرأة ثانية : لن يتورعوا عن دخول المسجد الأقصى بخيولهم .

رجل رابع : بل لن يتورعوا عن هدمه من أساسه .. قاتلهم الله .

رجل أول : يا إلهى .. إنهم يقتحمون المنازل الآمنة ويذبحون كل من بداخلها دون تمييز ..

امرأة ثالثة : واضح أنهم متعطشون للدماء .. استرها معنا يا رب .

رجل ثالث : هيا نجرى ناحية هذه الفتحة الفارهة لنخرج منها إلى بر النجاة .

امرأة ثانية : لا .. لقد تركت أولادى وحدهم ولابد أن أعود إليهم .

امرأة ثالثة : أنا أيضا أولادى بالمنزل فكيف أتركهم وأهرب ؟ اتركونى .. سأعود الآن إلى دارى .

رجل رابع : أجننت يا امرأة ؟ كيف تعودين الآن ؟ الأطفال فى أمان أكثر منا .. لا يمكن أن تعودى .. لا مفر من الهروب من هذه الفتحة .

رجل ثانى : هذه الفتحة الكبيرة إشارة من الله عز وجل . لقد أختارنا للإفلات من المجزرة .

امرأة أولى : وأهلنا ؟ أمى امرأة مسنة ولا تستطيع مواجهة هذا الموقف .. ستموت ذعرا قبل أن يقترب منها الفرنجة .

رجل ثالث : كفانا ولولة .. بعد دقيقة سنجرى بأقصى سرعتنا ناحية الفتحة .. إنه قدرنا .

رجل أول : نعم إنه قدرنا .. وربما كتبت النجاة لأهلنا . من يدرى ربما تدرك هؤلاء الفرنجة الرحمة بعد تحقيق حلمهم الأعظم بدخول بيت المقدس .

رجل رابع : ارحمنا أنت الآن من هذا الكلام الفارغ .. لن يرحموا أحدا ..

امرأة ثانية : يا إلهى .. هذا الفارس الافرنجى

ينظر ناحيتنا .. لقد رآنا .. انتهى كل شىء .

رجل أول : لا .. لم يلاحظنا .. إنما الخوف يجعلكِ تتخيلين ما لا يحدث .

امرأة أولى : إنهم يبتعدون عنا .

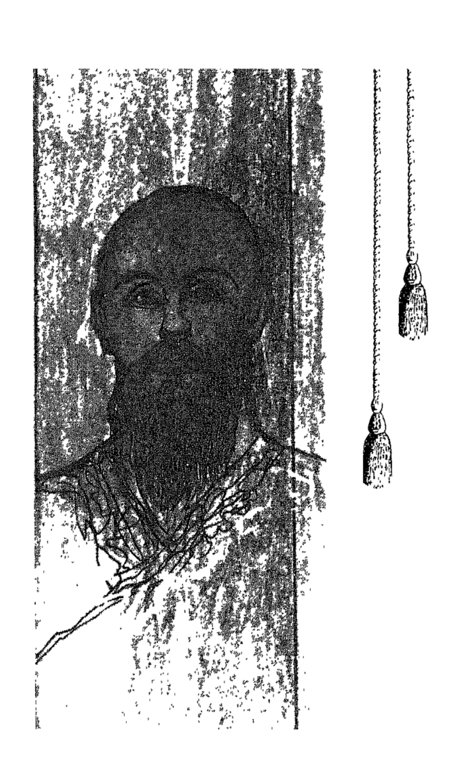
رجل ثالث : لقد دخل كل فرسان الفرنجة الذين كانوا وراء السور ومن ورائهم الجنود وتوغلوا داخل المدينة وصار المكانِ خال فيما يبدو .

رجل ثانى : الآن .. الآن يا إخوانى . اجروا ولا تتوقفوا مهما حدث . وعندما نخرج نتجمع ناحية اليسار .

امرأة ثالثة : نعم .. ليكن مصيرنا واحدا ..

رجل رابع : الموت أو النجاة من نار جهنم التى اشتعلت الآن ولن تطفئها إلا آخر قطرة دماء فى جسد آخر واحد من سكان بيت المقدس .

ســـــتار



الفصل الثانى

المشهد الأول

(نفس المنظر الذى ظهر فى بداية الفصل الأول لمدينة القدس مع تقليل الإضاءة وكأن معالم القدس أصبحت أكثر بعدا وأن النظر إليها يحتاج إلى مجهود خاص) .

الكورس : الآن .. لم يعد العالم كما كان . لازالت الشمس تشرق .. والقمر لازال يظهر فى السماء .. لكن أشعة الشمس لم تعد مصدرا للدفء والحياة .. وضوء القمر صار باهتا يشع الحزن والأشجان .. اليوم وقعت الصاعقة فوق الرؤوس .. سقطت قدس الأقداس .. ذهبت لايدى الأعداء .. غرق أهلها فى بحر من الدماء .. بيت المقدس لم يعد لنا بعد أن ذبح كل من فيه واستبيحت محرماته وسلمه من كان مكلفا بالذود عنه .. كل الشخصيات التى رأيناها من قبل لن نراها بعد الآن .. فهى تنتمى إلى عالم آخر .. عالم ما قبل سقوط القدس .. فيوم السقوط هو الحد الفاصل بين عالمين .. الحد الفاصل بين الموت والحياة .. بين اليأس والأمل ..

المشهد الثانى

(ساحة داخلية لمسجد كبير بدمشق يجلس فيها حارسه . يدخلها بعد رفع الستار مجموعة من الرجال والنساء في حالة هرج وتوتر شديدين ويبدو على ثيابهم المتسخة أنهم قاموا برحلة طويلة مضنية وأنهم عانوا كثيرا قبل الوصول إلى دمشق . يقوم الحارس عندما يتوجهون إليه بالكلام) .

رجل ثانى : أين القاضى أبو سعد الهروى قاضى قضاة دمشق ؟

امرأة أولى : قالوا لنا إننا سنجده هنا . أين هو ؟

حسن (حارس المسجد) : هو غير موجود

بالمسجد الآن . من أنتم ؟ وماذا تريدون من سيدى القاضى ؟

امرأة ثانية : نحن من سكان القدس التعساء ..

رجل رابع : وقد قطعنا الطريق الشاق من هناك إلى هنا للقاء القاضى .

حسن : القدس .. وكيف جئتم إلى دمشق ؟ لقد سمعنا أن القدس سقطت فى أيدى الفرنجة .

رجل ثالث : نعم .. سقطت . سقطت ولم يقف أحد إلى جوارها ..

امرأة ثالثة : سقطت وسنظل نبكى عليها أجيالا بعد أجيال .

امرأة أولى : إنه عار على العرب وعلى أمة الإسلام .

رجل أول : بيت المقدس اليوم بين أيدى من لا يعرفون الرحمة .

الحارس : وأين أهلكم وذويكم ؟

امرأة ثانية : لا ندرى .. لقد أفلتنا بأعجوبة من المذبحة التى قام بها الفرنجة . لم يفرقوا فيها بين رجل أو امرأة أو طفل أو شيخ ..

رجل أول : وهرع أهل القدس فى كل مكان كالسكارى لا يعرفون اتجاه سيرهم .

رجل رابع : أو كالأعمى حين يستشعر الخطر فيجرى فى الخلاء دون أن يعلم متى سيرتطم بحاجز أمامه .

امرأة ثانية : أولادى .. أولادى .. لا أدرى أين هم وما مصيرهم اليوم .. هل طالتهم سيوف الفرنجة أم اختبأوا فى مكان أمين ؟ هل لا زالت تنبض قلوبهم بالحياة أم ماتوا ميتة الفئران فى المصائد ؟

امرأة ثالثة : أبنائى .. أحبائى .. هل تفكرون فىّ الآن كما أفكر فيكم أم انعدمت أحاسيسكم إلى الأبد ؟

امرأة أولى : لقد تركت أمى المسنة فى المنزل وخرجت أبحث لها عن طعام .. فوجدت الفرنجة وقد ظهروا فجأة وبدأوا يدهسون الناس بسنابك خيولهم ويعملون بسيوفهم طعنا فى كل ما يتحرك فوق ظهر الأرض .

رجل ثانى : أين القاضى الهروى ؟ لقد سمعنا عنه كثيرا وقيل لنا إنه هو الوحيد الذى بوسعه أن يخرجنا من محنتنا .

امرأة ثالثة : قيل لنا أنه هو الذى يستطيع أن يتصدى للفرنجة بقوة إيمانه وعظمة يقينه .

رجل أول : نعم .. هو القادر على أن يعبىء أمة

العرب والمسلمين لمواجهة الفرنجة .

رجل ثالث : سمعنا أنه يصرخ بأعلى صوته لجذب انتباه الناس والحكام للكارثة التى حلت علينا .

رجل رابع : ولا حياة لمن تنادى ..

امرأة ثالثة : لكن الأمر اختلف اليوم بعد أن سقط بيت المقدس ..

رجل ثانى : سيدرك الجميع أن أبا سعد كان على حق فى دعوته .

رجل ثالث : أين هو الان ؟ نريد أن نقابله على الفور .

الحارس : سيدى القاضى يعيش هو الآخر محنة يبدو أن الله تعالى يمتحنه بها . فابنه الوحيد يعانى من مرض عضال لم يجد الأطباء له دواء . لكن سيدى لازال يأمل فى شفائه ولا يكف عن الصلاة داعيا الله فى كل لحظة أن يبقى له ولده الوحيد .

(بعض الرجال والنساء يدخلون إلى المسجد بسرعة) .

ساكن انطاكية : سمعنا أن بعض سكان القدس الهاربين وصلوا إلى دمشق وأنهم يبحثون ...

رجل ثانى : نعم .. نحن أهل القدس ولم نتركها إلا بعد أن أشتعلت نارا وصارت خرابا ..

امرأة أولى : ومن أنتم ؟

الحارس : هؤلاء نزحوا مثلكم من ديارهم بعد غزو الفرنجة لبلادهم ولجأوا إلى دمشق أملا فى النجاة .

ساكن معرة النعمان : وانتظارا لعودتنا مظفرين إلى أوطاننا بإذن الله .

رجل ثالث : من أى مكان نزحتم ؟

ساكن انطاكية : من عدة أماكن .. أنا من انطاكية .

ساكن المعرة : وأنا من معرة النعمان .

رجل رابع : معرة النعمان ..

امرأة ثانية : يا حسرتى على شهدائها .

رجل أول : سمعنا أنهم أكلوا بعض أهلها أحياء .

ساكن المعرة : نعم .. هذا صحيح عندما خرجت من مخبأى للهرب متسترا بعباءة الظلام فى المساء بعد سقوط المدينة رأيت بعينى عن بعد جسدا لم أتبين إن كان لرجل أو لامرأة معلق فى سيخ حديدى يدور فوق لهب النار والفرنجة يهللون من حوله وهم فى حالة هياج وانتشاء .

رجل ثانى : اللعنة عليهم .

امرأة أولى : لقد فعلوها لينتشر الخبر بين الناس فيصاب جميع العرب والمسلمين بالذعر ويهربوا من بلادهم بمجرد اقتراب الفرنجة .

امرأة ثالثة (موجهة حديثها إلى الرجل الثالث الذى دخل المسجد) : وأنت أيضا من المعرة ؟

ثالث : لا .. أنا جئت مع زوجتى وأولادى من حصن الأكراد بعد أن أنزلنا بالعدو هزيمة نكراء بإمكانياتنا الهزيلة .. ثم انتظرنا أن يأتى لمساعدتنا أحد فيفك عنا الحصار لكن آمالنا كانت واهية فلم يتحرك أحد وسقط الحصن بين أيدى الفرنجة .

رجل رابع : أنتم السابقون ونحن اللاحقون .

ساكن الرها : نحن فى الهم سواء .

امرأة ثالثة : أخشى أن نتحول جميعا إلى مهاجرين فى أرض الله الواسعة إذا استمرت الأحوال على ما هى عليه اليوم .

(رجل مهيب يدخل المسجد دون أن يلحظه أحد فى البداية . يتجه الحارس نحوه فور رؤيته) .

حسن : سيدى .. هؤلاء حضروا من القدس ويروون قصصا غريبة ..

القاضى الهروى : من القدس .. أكنتم شهودا على تدنيس الفرنجة لبيت المقدس ؟

سكان القدس (فى صوت واحد) : نعم يا سيدى .

الهروى : (يهز رأسه أسفا) : يمكنكم أن تقولوا

لأولادكم أنكم عشتم أسود يوم في تاريخ الأمة العربية الإسلامية .. سيظل هذا اليوم المشئوم يوم خزى وعار علينا وعلى من يأتى من بعدنا . أريد أن أسمع منكم ما حدث .

امرأة أولى (بصوت منخفض) : من هذا الشيخ ؟

امرأة ثالثة : أيكون القاضى الهروى ؟

الهروى : أنا القاضى أبو سعد الهروى . وقد علمت أنكم تبحثون عنى فجئت أستمع إليكم .

(همهمة بين الحاضرين) .

الهروى : لماذا لا تجيبونى ؟ أريد أن أعرف ما الذى حدث فى بيت المقدس ؟

رجل أول : ما وقع لا يوصف بكل الكلمات التى أخترعها عقل الإنسان .

رجل ثانى : ما حدث يفوق أبشع التصورات يا سيدى القاضى مهما أوتى الإنسان من خصوبة فى الخيال .

الهروى : صفوا لى ما حدث كما رأيتوه بعيونكم .

امرأة أولى : لقد بدأ كل شىء صباح الجمعة

الحزينة عندما أخترق الفرنجة سور المدينة من الشمال .

رجل رابع : وكنا نحن فى الجانب الآخر نسمع صيحات الاستغاثة بآذاننا ووقع سنابك الخيل تدك الأرض كطبول الحرب .

امرأة ثالثة : وصرخات قادة العدو لحث رجالهم على القتل والذبح والتعذيب .

امرأة ثانية : وصارت دماء عروقنا فى برودة الثلج عند أوج الشتاء .

رجل ثانى : واقتربنا من حائط المدينة وكأنه مظلة أمان .

رجل أول : لكن الحائط تهاوى تحت ضربات الفرنجة .

امرأة ثالثة : وتساقطت أحجار السور أمام عيوننا فشعرنا من خوفنا كأنها حمم متوهجة من بركان فقدت الطبيعة كل سيطرة عليه .

رجل رابع : فجأة وجدنا الفرنجة يندفعون بخيولهم كالوحوش الكاسرة .

امرأة ثانية : وهم يرتدون دروعا حديدية تغطى أجسادهم ووجوههم فيبدون وكأنهم آلات شيطانية لا صلة لها بالإنسان .

رجل ثانى : وكان رجال سان جيل أكثر شراسة ووحشية من الجنود الذين دخلوا المدينة من الشمال فى الصباح الباكر .

امرأة ثانية : كانوا فى حالة غليان لأن الجيوش الأخرى دخلت بيت المقدس قبلهم .

رجل ثالث : لم يكتفوا بالقتل والذبح لكنهم كانوا يتفننون فى تعذيب من يقع بين أيديهم قبل الاجهاز عليه .

امرأة أولى : وكأنهم يريدون تعويض تأخرهم عن الآخرين .

رجل رابع : ورأينا الدخان وألسنة النيران ترتفع من جهة الشرق .

امرأة أولى : ومن ناحية الشمال .

امرأة ثالثة : لا نعرف ما الذى أحرقوه .

رجل ثانى : سمعنا أنه المسجد الأقصى .

رجل ثالث : ياللكارثة ..

امرأة ثانية : ياللمصيبة .

الهروى : لا .. المسجد الأقصى سليم بحمد الله .

رجل ثالث : نحمدك يارب .

رجل أول : هل تعرف ما الذى أحرقوه يا سيدى

القاضى ؟

الهروى : لقد التجأ اليهود إلى معابدهم للصلاة والدعاء أن يخلصهم ربهم من أيدى الفرنجة .. فما كان من هؤلاء إلا أن سدوا منافذ المعابد على من بداخلها ثم أشعلوا فيها النيران فاحترق كل الذين بالداخل أحياءا . ومن حاول منهم الخروج ذبح أمام المعبد ليكون عبرة لغيره .

رجل رابع : الغريب أنهم لم يرحموا النصارى وكان هؤلاء يظهرون الصليب أملا فى النجاة فلا يعبأ الفرنجة به وتنهال ضربات بلا رحمة ولا تتمييز على كل من هو عربى من سكان أورشاليم .

الهروى : بل فعلوا أكثر من هذا .

رجل ثانى : ماذا تقصد يا سيدى القاضى ؟

الهروى : بعد أن أفرغوا شحنات العنف الدموى التى تفجرت داخل صدورهم منذ اللحظة التى وطأت فيها أقدامهم الأرض الطاهرة وبعد أن أجهزوا على جميع سكان المدينة ووصل أرتفاع الدماء إلى ركب فرسان الفرنجة تذكروا أنهم جاءوا بدعوى تخليص قبر المسيح عليه السلام .. فتوجهوا إلى كنيسة القيامة للصلاة وعيونهم تفيض بالدموع .. لكن أول ما صنعوه

قبل الصلاة كان أن طردوا منها بالقوة الجبرية جميع القساوسة من كافة الملل المسيحية من روم وجورجيين وأرمن وأقباط وسريانين .

رجل رابع : لكن سيدنا عمر نفسه لم يفعل ذلك عندما دخل أورشاليم .

الهروى : بل لم يفعلها أحد على مر التاريخ ما بالك بسيدنا عمر . لم تنعم القدس بأيام زاهرة بالتسامح وأحترام الغير مثل أيام عمر بن الخطاب .

رجل أول : لكن هؤلاء القساوسة هم حماة كنيسة القيامة منذ اليوم الأول الذى أنشئت فيه ؟

الهروى : نعم .. إنما الفرنجة رفضوا الاستماع إلى احتجاجهم . وعندما فوجىء القساوسة بهذا التعصب الأعمى قرروا أن يقاوموا على طريقتهم فرفضوا أن يدلوا الفرنجة على مكان الصليب الخشبى الذى يعتقدون أن المسيح عليه السلام قد صلب عليه .

امرأة ثانية : لن يرحمهم الفرنجة .

الهروى : هذا ما حدث بالفعل .. فقد جـن جنونهم .. وهم يقومون الآن بتعذيب القساوسة بأبشع الأساليب لا نتزاع أعترافهم بمكان الصليب الخشبى ولم ينجحوا فى ذلك حتى الآن .

رجل ثانى : وكيف علمت بكل هذا يا سيدى القاضى ؟

الهروى : لقد بلغ النبأ قساوسة دمشق .. وهم فى حالة استياء شديد ويحاولون مساندة أخوانهم فى بيت المقدس وتخليصهم من العذاب الرهيب الذى يتعرضون له الآن .

رجل ثالث : أن النصارى عندنا يعتبرون أنهم أقرب إلى المسيح من الفرنجة .

رجل رابع : وهم محقون فى ذلك .. ألم ير نور الحياة بالناصرة فى قلب فلسطين ؟

امرأة ثالثة : ولم يفارق هذه الأرض المباركة طوال حياته إلا عندما هرب إلى مصر مع أمه وهو رضيع .

الهروى : إنما الفرنجة يعتبرون أنفسهم ورثة المسيح الوحيدين فى الدنيا .

حسن : يا أخوانى .. احمدوا الله أنكم هربتهم من هذا الجحيم .

ساكن حصن الأكراد : حقا .. فحظكم أفضل من كل هؤلاء الذين ذبحوا دون أن يملكوا فرصة المقاومة .

ساكن انطاكية : أو النساء والأطفال الذين تعرضوا للسبى ولا يعرفون الآن ما مصيرهم .

رجل ثانى : ياليتنا ما هربنا .. أنه عار علينا .. كان الأفضل أن نبقى ونلقى مصير أهلنا .

رجل أول : لقد عشنا معهم سويا دائما على الحلو والمر فلماذا نفترق الآن أمام ضربة القدر الحزين ؟

امرأة أولى : يا رب .. كيف نستطيع أن نعيش خارج بلادنا الآن ونحن مرفوعى الرأس ؟

رجل رابع : على ما نبكى ؟ أنبكى على أهلنا الذين تركناهم لمصيرهم الأسود ؟ أنبكى مذلة الهروب من ديارنا ومن أرضنا الطيبة ؟

امرأة ثالثة : أم نبكى حالنا البائس فى الغربة .. مشتتين بلا أرض ولا هوية ؟

القاضى : لا .. لا تحزنوا أيها الأخوة .. الهجرة ليست عيبا ولا عارا .. أن أول المهاجرين كان سيدنا الحبيب محمد بن عبد الله . أنسيتم أنه ترك مكة المكرمة تحت وطأة الاضطهاد وذهب إلى يثرب حيث أكرمه أهلها . أليس يوم هجرته هو بداية التقويم الذى نسير عليه لمعرفة الأيام والشهور والسنين .. فالهجرة فى وقت الشدة أمر طبيعى بل هى أمر مطلوب لمن

يعانى من المحن .

امرأة ثانية : لا تحاول أن تهون علينا يا سيدى القاضى .

الهروى : أبدا والله . فما أقول إلا الحق . الهجرة أمر مطلوب عند الضرورة لكن بشرط .. وهو أن يتعهد من يقدم عليها بالعمل الجدى استعدادا للعودة فى أفضل الظروف إلى وطنه الذى هاجر منه . فسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أنطلق من المدينة المنورة ثم جاهد فى سبيل الله حتى أزهق الباطل ودخل مكة معززا مكرما بعد أن تركها مضطهدا مستضعفا .. وأنتم هنا بين أهلكم . فأهل دمشق يتحدثون العربية مثلكم وهم مسلمون مثلكم ولهم مثلكم نفس العادات والطباع والقيم والتقاليد . فأنتم لستم فى بلاد غريبة .

امرأة أولى : والله ما لقينا حتى الآن إلا كل ترحيب من الناس البسطاء الذين ذرفوا الدموع عندما استمعوا إلى ما مر بنا .

رجل أول : وكان الناس فى الطريق يتسابقون لخدمتنا وتقديم كل ما لديهم بغير أن نطلب منهم شيئا .

امرأة ثانية : برغم ظروفهم الصعبة والفقر الذى يلهب ظهورهم كالسوط اللاسع .

الهروى : هذا ما أتوقعه من أهل دمشق .. ومن الآن فصاعدا فإن عليكم يا اخوانى التحلى بأمرين هما الصبر واليقين .. الصبر على الشدة التى أختار الله سبحانه وتعالى أن يمتحنكم بها واليقين بأنكم عائدون بأذن الله إلى بيت المقدس الذى عاش فى ظل الإسلام أروع أيام التسامح والانفتاح .

رجل ثالث : لكننا لن نعود إلا بعد أن نحقق الانتصار ونكيل للفرنجة ما كالوه لنا .

امرأة أولى : لن نترك رجلا أو طفلا أو امرأة إلا ونسحق رأسه سحقا كما فعلوا بأبنائنا وأخواتنا .

رجل أول : أما نساؤهم فستدفعن غاليا ما حدث لزوجاتنا وبناتنا .

امرأة ثالثة : نعم .. والله لن نرحمهن .

امرأة أولى : لن يهدأ لأهلنا بال إلا بهذا ونحن لن نخذلهم .

رجل رابع : لا .. بل سننتقم لهم شر أنتقام وسوف تسيل دماء الفرنجة بحارا نغسل بها عارنا .

امرأة أولى : سنجعلهم يركعون أمامنا طلبا للرحمة .

رجل ثالث : فنقطع أطرافهم ثم رؤسهم ونلقى

بجيفهم إلى الضباع والنسور .

القاضى : يا أخوانى .. يا أخوانى .. ما تقولوه فى فورة الغضب والحماس كلام لا يقره ديننا ولا تقره القيم والأخلاق التى يجب أن نتحلى بها فى وقت الشدة .

امرأة ثالثة : أيذبحون نساءنا وأطفالنا وتطلب منا الصفح والامتناع عن معاملتهم بالمثل .

الهروى : إنما الرغبة المريضة فى الإنتقام ليست هى السبيل .

رجل ثانى : لو عشت ما عشناه لما قلت ذلك .

امرأة ثانية : لسنا ملائكة يا سيدى ولا يمكن أن نترك ما جرى وكأن شيئا لم يحدث ..

الهروى : لا أطلب منكم ذلك .. فأنا أول من ينادى بالجهاد الصحيح . وعلينا أن نعمل بكل عزائمنا لنستعيد بيت المقدس لكنه لا ينبغى أن نحلم بقتل الأطفال والشيوخ والاعتداء على أعراض النساء . وإلا فما الفرق بيننا وبينهم ؟ فليبق بيت المقدس إذا بين أيديهم إن كنا ننوى أن نحوله مرة جديدة إلى بركة من دماء الأبرياء . فبأى حجة ندعو الله أن ينصرنا عليهم إذا كنا مثلهم نمارس المعاصى ونرتكب الجرائم التى لا يقرها الدين ولا الضمير ؟

رجل أول : إذا فقل لنا ماذا نفعل ياشيخنا الجليل .. فنحن نؤمن بما تقول ولن نسمع لأحد غيرك .

امرأة ثالثة : نعم .. لقد خدعنا الجميع .. خدعنا ساداتنا وكبراؤنا ولم نعد على استعداد لتصديق ما يقولون .

امرأة أولى : لم يقوموا بأبسط واجباتهم نحونا وهى حماية حياتنا وأموالنا وأعراضنا .

رجل رابع : تركونا نتعرض للذل والهوان على يد أعداء الله وهم عاجزون عن مواجهتهم .

رجل ثالث : نحن رهن أشارتك يا سيدى القاضى .. فقل لنا بالله عليك ماذا نفعل .

الهروى (يطرق لحظات) : لا يوجد إلا حل واحد ..

رجل ثانى : ما هو يا سيدى ؟

امرأة ثالثة : قل لنا ما هو قرارك يا مولاى .

الهروى (يسرح قليلا قبل أن يجيب) : قبل أن أخطركم بقرارى الذى لا أرى بديلا عنه هناك أمر لابد أن أنجزه . انتظرونى قليلا هنا . لن أغيب عنكم كثيرا .. يا حسن أحضر لأخواتنا الأعزاء الطعام والشراب حتى أعود .

حسن : حاضر يا سيدى . (يخرج الهروى)



المشهد الثالث

(حجرة بسيطة داخل منزل أبو سعد الهروى فى جانب منها سرير مغطى بناموسية . يقف القاضى وإلى جانبه زوجته وكأنهما يستكملان مناقشة بدأت قبل تسليط الأضواء عليهما . تقف إلى جانبهما شقيقة الهروى) .

زوجة الهروى : ماذا تقول يا أبا سعد ؟ تتركنا فى هذا الحال وتذهب إلى بغداد .. كيف .. أبننا الوحيد بين الحياة والموت .. وعندما يهذى فى المساء لا يردد إلا كلمة واحدة : أبى .. أبى .. ان وجودك إلى جانبه حافز له على الحياة . وأنت تريد أن تتركه فى هذا

الحال . كلميه يا أم مروان فأنت شقيقته الكبيرة ..

أم مروان : والله لا أدرى ما أقول .. فأنا فى ذهول من هذا القرار المفاجىء .

الهروى : لا تجعلى الأمر أكثر صعوبة على نفسى يا أم الحكم . أعلم أنكم تحتاجون لوجودى إلى جانبكم فى هذه اللحظات العصيبة لكن أفهمينى المسألة لم تعد قضية شخصية .. فمصير الأمة الإسلامية فى خطر .

الزوجة : وتريد أن تقنعنى أن ذهابك إلى بغداد سينقذ الأمة الإسلامية من محنتها يا أبا سعد ؟ يا رجل .. الأمة الإسلامية لها رب قادر عليم يرعاها . ولها خليفة يسهر عليها ولها جيش جرار يضم آلاف الفرسان ولها قادة يحمونها عند الخطر . أما أنت فمهمتك القضاء وقد كلفك مولانا دقاق رعاه الله بالفصل بين الناس بالحق ولم يكلفك بالدفاع عن أمة الإسلام . إنما هذه مهمة غيرك .

الهروى : لكن غيرى لا يقوم بها .. لقد أصيبت أمتنا بالترهل وانعدام الأحساس .. وهى اليوم فى حاجة إلى صدمة عنيفة تفيقها من هذا الحال التعس ..

الزوجة : فليتول غيرك أعطاءها هذه الصدمة .

الهروى : لست أنا الذى سيجعلها تفيق من سباتها

ولا أدعى أننى أملك ذلك .. فالوحيد القادر على زعزعة الضمائر وتحريك المشاعر هو خليفة الدولة العباسية أمير المؤمنين المستظهر بالله . لذا لابد أن القاه .. لابد أن أشرح له الأوضاع على حقيقتها فيقينى أنه لا يدرك حجم الكارثة ..

أم مروان : لماذا يا أخى أيعيش الخليفة فى القمر أم يعيش بيننا على ظهر الأرض ؟ ألم يعلم بسقوط أورشاليم ؟ ألم يسمع منذ عامين عن زحف الفرنجة الكاسح الذى سينتهى الى قصره بإذن الله إن لم يتحرك .

الهروى : يقينى أن من حوله يخفون عنه الحقائق . يقينى أنهم كالجدار العازل بينه وبين مشكلات الناس الحقيقية .

أم الحكم : لقد قال الطبيب أن الأيام الثلاثة القادمة ستكون فاصلة .. ومن الوارد تماما لا قدر الله أن يموت فى أى لحظة خلال هذه الأيام . أيهون عليك أن يموت ابنك وأنت فى الطريق إلى بغداد فى رحلة يائسة تعلم أنها لن تقدم ولن تؤخر فى شىء ؟

الهروى : لو كنت أعلم ذلك لبقيت إلى جواره يا أم الحكم . لكن الأمل يملأ قلبى بأن مهمتنا فى بغداد

ستكون ناجحة وسنقنع الخليفة بخطورة الأوضاع حتى يتخذ قرارا فوريا بتشكيل جيش عظيم يطرد الفرنجة من أرضنا الطاهرة .

أم الحكم : وابنك يا أبا سعد ؟ أنا لا أتحدث عن نفسى وحاجتى إلى وجودك فى هذه المحنة . لكن أبنك .. ألا تتخيل أن رحيلك سيقضى على آخر فرصة لنجاته من المرض ؟ ألا تدرك أنه عندما يسمع صوتك كالخيال وهو فى غيبوبة الحمى ويستشعر وجودك إلى جانبه فإن هذا الاحساس يدخل الدفء فى جسده ويحفزه على التشبث بالحياة .

الهروى : أرجوك يا أم الحكم .. أرجوك .. لا تجعلى شعورى بالذنب يطغى على إحساسى بالواجب إزاء وطنى وإزاء دينى . أنت أكثر من يعلم فى الدنيا كم أتعذب منذ زمن طويل بسبب تمزق أمة العرب .. كم مرة رأيت الدموع فى عينى وأنا أجلس وحدى بسبب ما آلت إليه أمتنا . وكنت أحدثك عن ألمى وحسرتى على النزاعات المستمرة بين ملكنا دقاق وشقيقه من لحمه ودمه رضوان ملك حلب .

زوجته : أعلم كل هذا وكم قلت لك لا تعذب نفسك لأمر لا يد لك فيه ولا تستطيع أن تغير فيه شيئا .. فأنت لن تغير حال الدنيا .. وأكرر لك نفس الكلام

الآن .. تستطيع أن تساهم فى انقاذ حياة ابنك الحكم ببقائك إلى جواره بالدار لكن ذهابك إلى بغداد لن يكون له أى أثر فى مسار أمور أمة العرب والمسلمين . حالنا البائس لن يتغير بمجرد لقاء بينك وبين الخليفة يا أبا سعد .

الهروى : احتمال الفشل لن يثنينى عن المحاولة . سأسافر غدا بإذن الله على رأس أهل القدس الذى حفظهم الله من المذبحة ربما ليكونوا شهودا أحياء أمام العالم وأمام الخليفة .

أم مروان : بصراحة أنا لا أوافقك على هذا القرار يا أخى .. أن كنت مصرا على السفر إلى بغداد فأجل رحيلك لبضعة أيام حتى يأخذ الله بيد ولدك الحكم وتسافر مطمئن البال .

الهروى : لا أستطيع .. لا أستطيع يا أم مروان .. الأمر لا يحتمل التأجيل .. لو رأيت عيون أهل القدس الأشقياء ولمحة الأمل التى تلمع فى نظراتهم إلى لما قلت هذا .. حضرى لى ما أحتاج إليه من ثياب يا أم الحكم وسأطلب من حسن أن يحضر لنا بعض المؤونة . فالرحلة ستكون شاقة وطويلة . لكن العناء الحقيقى لن يكون عناء ماديا لأن قلبى سيتمزق فى كل

خطوة من خطوات الطريق على ولدى الحبيب .

أم الحكم : أهذا قرارك الأخير يا أبا سعد ؟

الهروى : نعم .. على أن أقوم بواجبى حيال أهلى ووطنى ودينى حتى لو أدى ذلك إلى أن أدوس على قلبى ومشاعرى الخاصة . سامحينى يا أم الحكم . وليسامحنى أبنى الحبيب .. سأدعو له من كل قلبى وأملى كبير أن يستجيب الله تعالى لدعائى فهو عليم بالبركان الذى يتفجر فى صدرى الآن . أما أنت فلك الله عز وجل .. وأرجوك أن تدعى من أجل شفاء ابننا الغالى ولا تنسى فى دعائك أن تذكرينى .. فأنا أيضا فى حاجة إلى الدعاء حتى يوفقنى الله تعالى فى مهمتى العسيرة . يا أم مروان .. لا تتركيها وحدها فى هذه المحنة .. أعلم أن لديك مسئولية بيتك وزوجك وأولادك .. لكن أتوسل إليك .. لا تتركيها .

أم مروان : اطمئن يا أخى .. إن كان قلبك قد طاوعك على أن تترك ابنك وزوجتك فى هذه الحال فأنا عن نفسى لن أقوى على ذلك .

الهروى : أعلم أنه يمكننى أن اعتمد عليك .. السلام عليك يا زوجتى الحبيبة .. السلام عليك يا أم مروان .. أدعوا الله أن يوفقنى فى مهمتى فدعاؤكما

سيزيدنى صلابة واصرارا ..

(يتوجه إلى الفراش ويقبل ابنه ثم يتوجه إلى الخارج) .



المشهد الرابع

(ساحة المسجد كما رأيناها فى المشهد الثانى . أهل القدس متجمعون وأمامهم القاضى الهروى . الكل جالس . عيون الجميع متجهة ناحية الهروى).

رجل أول : والآن ما العمل يا سيدى ؟ الدنيا صار لونها أسود فى أعيننا .

امرأة أولى : ولا يوجد لنا رجاء سوى أنت وأمثالك من الرجال المتفانين فى خدمة أمتهم ..

امرأة ثانية : ياليتك وأمثالك كنتم من المحاربين أو من الحاكمين .. فلو أن بينهم من يملك نصف غيرتك على الإسلام لتغير وجه أمتنا .

رجل ثالث : لكن للأسف فأنت لا تملك سوى كلمة الحق التى لم تعد تنفع فى الغابة التى نعيش بها اليوم .

رجل ثانى : الحق دون قوة تنصره كالسيف الباتر وهو ساكن فى غمده لا يخشاه أحد .

الهروى : أنتم مخطئون يا أخوانى .. أن لدينا الكثير .. أنسيتم أن لدينا خليفة للإسلام والمسلمين ؟ أنسيتم أن خليفة رسول الله لا زال حيا يرزق برغم كل المصائب التى هبطت على أمة الإسلام . أنسيتم أنه يتربع فى مكان أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان وعلى بن أبى طالب ؟ أليس من أحفاد هارون الرشيد والمأمون والمعتصم الذين نصروا أمتنا وجعلوها مرهوبة فى الأرض ؟ فهل كان الفرنجة يجرأون فى عصرهم على مجرد الاقتراب من ديارنا ؟

امرأة ثالثة : لكنه عصر ولى يا مولاى .

رجل أول : أنت تتحدث عن زمن راح ولم يعد سوى ذكرى فى عقولنا وضمائرنا ..

رجل رابع : الخليفة اليوم يا سيدى هو ظل شاحب لأجداده العظام ولا يحكم الأمة كما كانوا يفعلون بل ربما لا يحكم حتى القصر الذى يعيش فيه .

امرأة ثانية : والله لو أعطى المستظهر بالله امرا بقتال الفرنجة لأنطلقت الضحكات من حناجر أقرب

رجاله لأنهم يعلمون أن أحدا لن يستمع إليه أو يلقى بالا لما يقول .

امرأة أولى : الرجل الذى يحكم بغداد اليوم هو السلطان برقيارق وكل ما يهمه هو تأكيد سلطانه على أكبر رقعة ممكنة من البلاد وارهاب جيرانه حتى لا يعتدون على مملكته .

امرأة ثالثة : وقمع الأهالى حتى لا يطالبون بأبسط حقوقهم .

الهروى : لا بأس .. لنلقاه هو الآخر بعد الخليفة .. حتى نستميل إلى جانبنا السلطة الدينية والروحية للمستظهر بالله بالإضافة إلى القوة المسلحة للسلطان فنجمع بذلك عناصر الشدة التى تسمح لنا بمواجهة الفرنجة . لكنى مقتنع أن كلمة من الخليفة لها تأثير يتعدى بمراحل نفوذ هذا السلطان برقيارق .

رجل أول : وهل سيستمع لنا هؤلاء السادة الكبار ؟

امرأة ثانية : هل يقبلوا لقاءنا أصلا ؟

الهروى : كيف لا يقبلون وأنتم تجسيد حى للمحنة التى يعيشها العالم العربى الإسلامى . ومهمة الخليفة بإذن الله هى إخراج الأمة من هذه المحنة .

رجل ثانى : يا سيدى .. أن هزائمنا المتكررة

وسقوط القدس هى غضب من الله عز وجل علينا ولا يستطيع الخليفة ولا أى قوة على وجه الأرض أن يغيروا من الأمر شيئا .

امرأة أولى : نعم .. لقد أهملنا فى ديننا وتركنا تعاليم الله عز وجل وهذا عقاب من السماء .

الهروى : كفى هراء .. هل كتب علينا أن نتنصل من المسئولية فى كل شىء ؟ أعندما نهزم بسبب تخلفنا وتقاعسنا نعلق فشلنا على الدين ؟ أنتمسح بالله عز وجل لتبرير نكستنا ؟ واجهوا الأمر الواقع ولو مرة واحدة .. فربما كان فى ذلك شفاء من خيبتنا لكنه يبدو أننا فطرنا على تبرير كل فشل بأمر خارج عن إرادتنا وتبرئة أنفسنا دائما من أى خطأ .

رجل رابع : وهل تعتبرنا مسئولين عن الكارثة التى وقعت يا سيدى ؟

الهروى : كل واحد منا مسئول عنها .. كل من لم يقم بعمله على خير وجه وكل من تنازل عن حقوقه وكل من رأى منكرا وسكت عنه مسئول عما نحن فيه اليوم .

امرأة ثالثة : لكننا ندفع ثمنا باهظا يفوق طاقة تحملنا يا سيدى .

الهروى : أعلم ذلك .. ولذا فعلينا أن نتحرك بسرعة قبل فوات الآوان .. هيا يا أخوانى .. لنرحل إلى بغداد غدا بعد صلاة الفجر مباشرة ولنستعن بالله حتى يوفقنا فى مهمتنا .

رجل ثانى : ونحن معك يا سيدنا الجليل .

امرأة ثانية : سنجهز الطعام والشراب اللازم لرحلتنا الطويلة ..

رجل أول : نعم .. انها لن تقل عن ثلاثة أسابيع .

امرأة ثالثة : إذا سنصلها فى شهر رمضان المبارك بإذن الله .

رجل ثانى : لعله فأل يبشر بالخير .

رجل رابع : لكن أعلموا أنها ستكون رحلة شاقة سنسير خلالها فى صحراء قاحلة لا ظلال بها إلا ظلال أجسادنا .

الهروى : كل شىء يهون فى سبيل لقاء الخليفة المستظهر بالله واطلاعه على الكارثة التى وقعت على رؤوسنا . أذهبوا الآن لتنالوا قسطا من الراحة .. أما أنا فقد قررت أن أحلق شعر رأسى حزنا على قدس الأقداس ولن أترك شعرة واحدة تنبت بعد اليوم فى

رأسى إلا عندما نسترد بيت المقدس بمشيئة الله من أيدى المعتدين .



المشهد الخامس

(أمام مدخل قصر الخليفة تجمع المصاحبون للهروى وهو على رأسهم . الرجال حلقوا شعورهم تماما وتركوا رؤوسهم عارية . يقترب الجميع من البوابة وراء الهروى فيتصدى لهم الحراس ويسدون عليهم الطريق بالحراب) .

سفيان قائد الحرس : مهلا .. مهلا .. أتظنون أنكم تدخلون حانة من الحانات ؟ أنتم أمام قصر الخليفة .. أبتعدوا على الفور وإلا طلبت من الحرس ضربكم بالسيوف .

الهروى : لماذا أيها الجندى .. أتظننا من الفرنجة ؟

أننا عرب مسلمون جئنا من دمشق للقاء خليفة رسول الله المستظهر اطال الله فى عمره .

سفيان : لقاء الخليفة .. أتظن يا شيخ أن الخليفة لديه متسع من الوقت للقاء أمثالكم ؟ أنه مشغول الآن .

الهروى : نريد أن نتحدث مع أحد المقربين للخليفة لنشرح له سبب مجيئنا ولينقل للخليفة رسالة منا وعندئذ سيأمركم بادخالنا على الفور . أنا القاضى أبو سعد الهروى قاضى قضاة دمشق فأذهب وإت لنا بأحد نتفاهم معه .

سفيان : لن أحضر لكم أحدا .. وأن لم تذهبوا على الفور فسوف أضطر لاستخدام القوة

(همهمات احتجاج من جانب سكان القدس) .

رجل أول : ما هذه المعاملة ؟

رجل ثالث : أهكذا تعاملون ضيوفكم ؟

امرأة أولى : لن نتحرك من هذا المكان إلا بعد لقاء الخليفة .

امرأة ثانية : ياليتكم تعاملون الفرنجة بنفس الشجاعة .

(رجل من حاشية الخليفة يظهر من خلف البوابة على هذه الأصوات) .

رجل الحاشية : ما هذه الضجة يا سفيان؟ من هؤلاء ؟

سفيان : هذا الرجل يدعى أنه قاضى قضاة دمشق يا سيدى ويريد لقاء الخليفة مع هؤلاء .

رجل الحاشية : ومن هؤلاء ؟

الهروى : أنهم من أهالى بيت المقدس فروا من المذبحة التى قام بها الفرنجة هنا . ونحن نريد لقاء الخليفة لنروى له ما حدث .

الرجل (يقترب من الهروى) : لقاء الخليفة : أتحسب أن ذلك أمرا سهلا .. حتى بالنسبة لشيخ جليل مثلك ؟

الهروى : ولم لا ؟ أليس أمير المؤمنين ؟ أليس الرّجل الذى يسهر على حل مشكلات المسملين أينما كانوا وأيا كانت مكانتهم ؟ أم تريد أن تقول أنه لا يلتقى سوى بذوى البأس والجاه والمال ؟

رجل الحاشية : لا أقصد هذا . لكن وقته مكتظ بالمشاغل ولا يستطيع أن يلتقى بأى واحد من الرعية يريد أن يقابله وإلا لقضى كل وقته فى الاستماع إلى مشاكل الناس .

الهروى : كلام غريب .. ألا تعرف أن رسول الله

كان يلتقى بالناس ويستمع إلى شكواهم ويناقشهم فى أحوالهم ؟ ألا تعرف أن كل الخلفاء الراشدين كانوا ينزلون إلى الناس ويجادلهم العامة فى أمور الدولة ؟ فهل الخليفة المستظهر أعلى شأنا من كل هؤلاء ؟

رجل الحاشية : بالقطع لا .. لكنه فى السابق كانت الظروف اهدأ وكان الناس أقل طمعا وجشعا فكان بوسع الخليفة أن يلتقى بمن له شكوى مهما كان شأنه . أما اليوم فقد اختلفت الأوضاع وأصبحت الأمة الإسلامية مترامية الأطراف والخليفة لا يرى إلا من له مشكلة عامة تخص أمة الإسلام بأسرها .

الهروى : وهل هناك قضية أهم أو أخطر من سقوط بيت المقدس ؟ أتريد أن توهمنى بأن الخليفة لديه مشاغل أهم من هذه الكارثة التى حلت على رؤوسنا جميعا ولا يستطيع أن ينجينا منها إلا أمير المؤمنين بما لديه من هيبة ومكانة بين كافة المسلمين .

رجل الحاشية (ينتحى جانبا بالهروى ويخفض صوته بعض الشىء) : سأحاول التدخل كى يستقبلكم الخليفة .

الهروى : بارك الله فيك وجعل موقفك هذا حسنة لك يوم القيامة .

رجل الحاشية : لكن المشكلة أن بعض المحيطين بالخليفة لا يحبون كثيرا أن يلتقى بأصحاب المطالب وهم ...

الهروى : مطالب ؟ وهل نحن أصحاب مطالب ؟ أننا لا نريد إلا ..

رجل الحاشية : أيها الشيخ الجليل .. لا تجادل فلا وقت عندى للجدل .. إن كنت حقا تريد لقاء أمير المؤمنين فلابد من إرضاء المحيطين به والذين يتحكمون فيمن يرى ومن لا يرى .

الهروى : لا مانع من ذلك .. ولكن كيف أرضيهم ؟

رجل الحاشية : أعتقد أن مائة دينار ستكون كافية .. وسوف أضغط عليهم كى يقبلوا بها . فلقاء الخليفة يساوى أكثر من هذا بكثير وقد يعود بنفع كبير كما تعلم .

الهروى : ماذا ؟ أتطلب رشوة لادخالنا عند الخليفة ؟ أم خاننى سمعى ولم أفهم ما تريد ؟ أنك ...

رجل الحاشية : أخفض صوتك يا رجل . يبدو أن التفاهم معك ليس سهلا .. ليس لدى وقت أضيعه معك .. أنا أحاول أن أساعدك لكنه يبدو لى أنك لا تريد

أن تفهم ..

الهروى : بل لا أريد غير ذلك . ما تطلبه هو أن أدفع لك مائة دينار فى مقابل أن تدخلنا على الخليفة أليس كذلك ؟

رجل الحاشية : ها قد فهمت . ولا تحلم بحل آخر للقاء أمير المؤمنين . فالمحيطون به لن يمكنوك من ذلك مهما فعلت . فلا تتعب نفسك وتضيع وقتك هباء .. إن كنت حقا تريد لقاء الخليفة فعليك أن تعطينى المائة دينار وسأحاول إقناع المقربين منه . ولست واثقا أنهم سيقبلون ..

الهروى : لا عليك يا رجل .. فلا أريدهم أن يقبلوا .. أنا أرفض مثل هذه الصفقة الرخيصة وأربأ بخليفة رسول الله أن يستقبل رعيته مقابل حفنة من المال ..

رجل الحاشية : إذا فاتركوا هذا المكان على الفور ..

الهروى : هيا بنا يا أخوانى .. سنعود للقاء الخليفة فى وقت آخر .

(يبتعد الهروى ومن معه) .

رجل الحاشية : يا شيخ .. (يقترب منه الهروى)

أنصحك إلا تحكى لمخلوق ما حدث الآن . فلن تتحمل نتائج ذلك . المقربون للخليفة لا يحبون الثرثرة . وعندما تيأس من لقاء الخليفة بوسيلة أخرى يمكنك أن تعود إلينا وسأحاول أن أساعدك .

الهروى (يعود إلى ناحية مرافقيه) : لنغادر هذا المكان علىَ الفور فالرائحة المنبعثة منه تزكم الأنوف ولم أعد أطيق أن أتنفسها .



المشهد السادس

(شارع من شوارع بغداد . سكان القدس يحيطون بالهروى . بعضهم جالس والبعض الآخر واقف ثم يقف الجميع) .

رجل أول : ما الذى حدث يا سيدى ؟ لماذا رفضوا أن يدخلونا إلى القصر للقاء الخليفة ؟

امرأة ثانية : ولماذا لم تفتح فمك بكلمة منذ أن تركنا قصر الخليفة ؟

رجل ثالث : أرجوك يا سيدى القاضى .. بحق هذا الشهر المبارك .. لم يعد لنا غيرك نعتمد عليه . فلا تتركنا هكذا دون أن تشرح لنا ما يحدث .

رجل رابع : لقد مرت ساعات دون أن توجه لنا كلمة واحدة .

امرأة ثالثة : نعلم أن فكرك مشغول بابنك شفاه الله ولا زلنا بلا أخبار عنه .

امرأة أولى : يعلم الله أنه لم يمر يوم واحد منذ غادرنا دمشق لم ندع فيه من أجل شفائه .

الهروى : صورة ابنى المريض لم تغادر مخيلتى لحظة واحدة منذ أن تركنا دمشق .. لكن سبب صمتى الآن هو خوفى من الفشل فى إنجاز ما أتينا من أجله . رجال الخليفة يقفون كالسد المنيع بينه وبين الناس .. كل ما توقعته كان صحيحا . أنهم يتحكمون فى الصورة التى يرى بها الدنيا وممنوع على أى إنسان إعطاؤه صورة مختلفة عن تلك التى يرسمها له هؤلاء المستفيدون حسب أهوائهم ومصالحهم . هذا سر المحنة الكبرى التى نعيشها .

امرأة ثانية : وما الذى نستطيع أن نفعله الآن يا سيدى ؟

الهروى : هذا ما كنتُ أفكر فيه .. ولذا لم أكن أجيب على أسئلتكم لأننى لم أتوصل إلى قرار نهائى حتى الآن .. وإن كانت هناك فكرة تلح على وقد أقوم بتنفيذها فى أقرب فرصة . فهم لم يتركوا لى الخيار

وقطعوا عنى كل الطرق المستقيمة .

رجل ثانى : لى رأى لو أذنت لى يا سيدى القاضى .

الهروى : نحن نفكر سويا .. وكل رأى من الممكن أن يكون مفيدا .

رجل ثانى : أرى أن نتصل بالحشاشين .. فهم أقدر الناس على الحركة والمقاومة .

رجل رابع : نعم .. لقد أثبتوا فى أكثر من مناسبة شجاعتهم وجلدهم .

رجل ثانى : أنهم حماة الدين فى هذا العصر الذى استكان فيه كل الناس .

امرأة ثانية : سمعنا أنهم لا يخشون الموت ويقتحمون أتون النار وكأنهم ذاهبون إلى الجنة .

رجل ثانى : أن زعيم الحركة الشيخ الحسن الصباح فى قلعة ألموت .. لكن رجالهم فى كل مكان وقد حدثنى رجل من دمشق بأنه على صلة بهم .

رجل ثالث : أنهم يفكرون مثلنا يا سيدى القاضى .. ولديهم نفس الغيرة على أمتنا وديننا .. وأنا على ثقة أننا سنتفق على ما يجب أن نفعله .

الهروى : من الواضح أنكم تناقشتم فى الأمر وأنكم

متفقون فيما بينكم ..

رجل أول : نعم يا سيدى .. فقد شعرنا منذ أن تركنا باب قصر الخليفة أنك ساهم لا تتحدث وأنك أصبحت بخيبة أمل شديدة لسوء الاستقبال الذى لاقيناه هناك .

امرأة أولى : فحاولنا أن نجد مخرجا نعرضه عليك .

رجل ثانى : وقد وجدت كلام الدمشقى الذى التقيت به اليوم مقنعا وأكد أن الحشاشين عرفوا بوجودنا هنا وأنهم راغبون في الاتصال بنا . ومن الممكن أن نستفيد منهم لتحريك الأمور .

(صمت . الكل ينظر إلى الهروى) .

رجل ثانى : ما رأيك يا سيدى ؟

الهروى : أنتم لا تعرفون من هم الحشاشون .

امرأة أولى : ماذا تقصد يا سيدى القاضى ؟

الهروى (بعد لحظة صمت) : لقد نجحوا فى أن يخلقوا حولهم هالة وضاءة مثلهم مثل كل من يتخذ الدين شعارا ويتمسح فى رحاب القرآن الكريم . لكن الواقع مخالف لهذا المظهر الخارجى البراق .

امرأة ثالثة : وما هو الواقع ؟

الهروى : الواقع أن الدين بالنسبة للحشاشين تجارة

رابحة يستخدمونها لتنفيذ أهداف سياسية لا علاقة لها بالإسلام . فهم يدعون الدفاع عن الإسلام ضد من يريدون اقتلاع ديننا من على وجه الأرض .. أليس كذلك ؟

رجل أول : نعم .. هذا ما يقولوه .

امرأة ثانية : وهو ما نعرفه عنهم .

الهروى : لكنهم لا يقتلون إلا العرب والمسلمين ولا تظهر شجاعتهم إلا على بنى جنسهم .. أنهم يعتبرون أن الخطر على الإسلام يأتى من المسلمين أنفسهم وليس من أعداء الإسلام الذين يتربصون بنا فى وضح النهار . يعتبرون أن المسلم الذى لا يوافقهم فى فهمهم الضيق للدين أخطر على الإسلام من الفرنجة . وفى قلعتهم الحصينة ألموت قائمة يسمونها قائمة الشرف .

رجل رابع : نعم .. إنها قائمة أعداء الإسلام .. وما الخطأ فى هذا يا سيدى ؟

رجل ثانى : أنهم يتخلصون ممن يخالف شريعة الله .

الهروى : وهل تعرف ما الأسماء المحفورة فى هذه القائمة يا أيها الرجل الطيب ؟ أنها أسماء عربية

وإسلامية .. ولا يوجد بها اسم واحد من أسماء الفرنجة .. اسم واحد يوحد الله .. وهل تعرف من الذى يتصدر قائمة الشرف ؟ أنه نظام الملك .

رجل ثانى : هذا رجل كافر يستحق القتل .

الهروى : ومن الذى قرر هذا ؟

رجل ثانى : الحسن الصباح زعيم المجاهدين الحشاشين .

الهروى : ومن خوله حق إهدار دماء الناس ؟ من أعطاه حق التحكم فى رقاب عباد الله ؟ هل شق قلب الرجل ليعرف ما بداخله ؟ أنها شريعة الغاب التى لا يمكن أن أقبلها أبدا . ولعلمك فإن الصباح لم يأمر بقتل نظام الملك إلا لأسباب سياسية ولخلافات شخصية قديمة عندما كانت بينهما منافسة دنوية شرسة فى بلاط السلطان ملكشاه وانتصر الوزير نظام الملك فى النهاية وظفر بالثقة الكاملة للسلطان . إن الإسلام بالنسبة لهؤلاء الحشاشين عباءة يتسترون بها لتنفيذ مآربهم الدنيوية التى لا علاقة لها بالدين من قريب أو بعيد .

رجل ثانى : يا سيدى أنهم يستهدفون بتر آفة الكفر من أرض الإسلام حتى نكون أقدر على مقاومة أعداء الخارج .

الهروى : وهل وصلت بكم السذاجة حد تصديق هذه الحجج المضحكة ؟ من يريد الجهاد حقا فليحسن فى عمله ويتقنه ولا يظهر الشجاعة على بنى جنسه فى الوقت الذى يجبن فيه من مواجهة عدوه الحقيقى الذى يجهر بنواياه العدوانية . إما أن تتحول دار الإسلام إلى محاكم للتفتيش فى الضمائر فهذا جديد علينا وأخشى أن يكون نهجا يظهر من حين لآخر فى عصور الانحطاط والشك بالذات .

رجل أول : يا سيدى القاضى ...

الهروى : يا إخوانى .. لا وقت للسفسطة بينما عدونا يتحرك ويتقدم ويحكم السيطرة علينا .. فإن رأيتم الاتصال بالحشاشين فأنتم أحرار فى ذلك طبعا .. لكن لا تعتمدوا علىّ فى أن أضع يدى فى يد من يرهبون الناس باسم الدين .

امرأة ثانية : لا يا سيدى القاضى .. لا تتركنا .

رجل أول : لا يا مولانا .. نحن لا نساوى شيئا بدونك ..

أمرأة أولى : إنما كنا نعرض فكرة تقبلها أو ترفضها .

رجل ثالث : إذا أردت أن تتركنا فلن نتركك نحن .

امرأة ثالثة : لكن قل لنا ما الذى يمكن أن نصنعه الآن .

رجل رابع : لقد أصبحت كل الأبواب موصدة فى وجوهنا .

الهروى : غدا بإذن الله سنذهب لصلاة الظهر سويا ..

رجل ثانى : وندعو الله أن يستجيب لنا .

الهروى : لا يستجيب الخالق عز وجل لدعاء إلا إذا بذل العبد الجهد اللازم لتحقيقه وكان أهلا لذلك بخلقه وتصرفاته .

رجل أول : ألسنا أهلا لما نطلبه يا سيدى ؟

امرأة أولى : أن مطلبنا الوحيد ليس مطلبا شخصيا وإنما هو من أجل صالح أمة العرب والإسلام .

الهروى .: غدا سترون ما فكرت فيه وقررت أن أنفذه بعد أن أنسدت كل السبل فى وجوهنا .

امرأة ثانية : وهل سنستطيع لقاء الخليفة يا سيدى القاضى ؟

الهروى : سنفعل ما علينا .. والتوفيق من عند الله عز وجل ..

المشهد السابع

(الهروى يجلس فى أكبر ميادين بغداد وحوله الفارون من القدس ويمر أمامهم الناس لتلبية نداء المؤذن الذى يتلو آذان الظهر فيسرع الناس فى خطاهم للحاق بالصلاة) .

رجل ثالث : يا شيخنا الجليل لماذا تجلس هكذا ؟ قم بنا إلى داخل المسجد وسنصلى وراءك .

رجل رابع : وندعو الله عز وجل أن يأخذ بيدنا فى مهمتنا العسيرة .

امرأة أولى : وأن يجعل القبول فى قلوب أولى الأمر فى بغداد .

امرأة ثالثة : وعلى رأسهم الخليفة المستظهر أعزه الله وسدد خطاه .

رجل ثانى : لا أدرى لماذا يرفض التحرك .

رجل ثالث : ويرفض الاجابة علينا .

رجل أول : تماما كما فعل بالأمس .

امرأة أولى : ماذا نفعل هنا يا سيدى ؟ ستفوتنا الصلاة إذا تباطأنا أكثر من هذا لماذا لا ندخل المسجد ؟

رجل رابع : ربما يريد سيدنا الصلاة بنا هنا خارج الجامع ليثبت للجميع إننا لا نرضى عن عدم اكتراثهم بما يحدث خارج بغداد وعدم إدراكهم لخطورة ذلك عليهم وعلى أمة العرب والمسلمين .

امرأة ثانية : وأنا أوافق على هذا . ليأمنا الشيخ الجليل هنا فى هذه الساحة حتى يعلم الخليفة المستظهر بالله أن الدين ليس تجارة وأن من يتمسك بالدين ينبغى أولا أن يتشبث بالأخلاق .

رجل أول : وبنصرة أخيه فى الحق والعدل وليس فى البغى والطغيان .

رجل ثالث : هيا بنا يا أمامنا الجليل ونحن معك فى كل ما ستفعله .

(الهروى يخرج لفة من سترته ويفاجأ الجميع بأنه يخرج طعاما ويبدأ فى الأكل بهدوء شديد) .

رجل ثانى : ما هذا يا سيدنا ؟ أنسيت أننا فى رمضان ؟

رجل أول : ماذا تفعل يا سيدى ؟ أنت تفطر هكذا فى العلن والمؤذن يؤذن لصلاة الظهر ؟

امرأة ثانية : ألا تعلم جزاء من يفطر فى العلن ؟

رجل رابع : ما معنى هذا يا سيدى القاضى ؟

(البعض من المتوجهين إلى المسجد يتنبهون لما يحدث) .

رجل من بغداد : ما هذا المجنون .. أنه يفطر .

آخر : أنت يا رجل .. هل أصابك مس من الجنون ؟

آخر : أين حرس السلطان . يجب أن يلقى هذا الكافر جزاءه .

رجل رابع من بغداد : بل يجب ألا ننتظر حرس السلطان .. علينا أن نقيم عليه الحد بأنفسنا .

رجل ثالث : انتظروا .. أنه أحد شيوخ الإسلام ومن كبار علماء ديننا الحنيف .

أحد سكان بغداد : لا يهمنا من هو .. شريعة الله على الجميع .

رجل من بغداد : أين حرس السلطان ؟

(الحرس يقتربون بسرعة والهروى مستمر فى تناول الطعام) .

قائد الحرس : أنت أيها الشيخ المعتوه ما الذى تفعله ؟ قم على الفور وإلا قطعت رقبتك فى الساحة .

امرأة أولى : انتظروا .. انتظروا .. ألا تعرفون من هذا الشيخ الجليل ؟ إنه القاضى أبو سعد الهروى قاضى قضاة دمشق .

رجل من بغداد : القاضى الهروى ؟ مستحيل .. هذه المرأة مخرفة .. فالقاضى الهروى يعلم الناس الدين الصحيح .

اخر : لا يمكن أن يجهر القاضى الهروى هكذا بالافطار .. نحن نسمع أنه من أكبر دعاة الإسلام .

آخر : ومن أشد المدافعين عن ديننا .

قائد الحرس : أحقا أنت قاضى قضاة دمشق الذى ينحنى الجميع لعلمه . إن كنت هو فما الذى دفع بك إلى ارتكاب هذه المعصية الكبرى ؟ أجب يا رجل وإلا اضطررت إلى معاملتك بأسلوب آخر .

(المتجمعون من أهل بغداد يصيحون) : لا تجادلوه . أقيموا عليه الحد مهما كان أمره . دقوا عنقه ..

آخر : أنه كافر والعياذ بالله . الموت للكافر ..

(**صيحات تنطلق من كل مكان)** : الموت للكافر ..

الهروى (يقوم من جلسته ببطء ويقف فوق مسند صغير وضعه تحت قدميه) : يا أيها الناس .. أراكم حريصين على دينكم .. غيورين على تطبيق حدود الله .

أحد سكان بغداد : لا يجب أن نسمعه .

الهروى (يكمل كلامه وكأنه لم يقاطع) : لكن حماسكم الجارف ينصب على شيخ أعزل أفطر فى الشهر المبارك وعقابه عند الله أولا قبل أن يكون عند البشر . أراكم قد انتفضتم فى حماسة وأتفقت كلمتكم جميعا لتوقيع الحد على شخصى الضعيف .

رجل من بغداد : لا تسمعوه .

آخر : أسكت أيها الزنديق .

الهروى : أراكم قد تركتم الصلاة والتففتم من حولى لأننى خالفت أوامر الله عز وجل جلاله فى علاه . ولأننى أدعو الناس منذ عشرين عاما إلى طاعة الله وإلى البعد عن المعاصى وإلى الالتزام بكل ما أنزل خالق الأرض والسماء فأنا سعيد لما تفعلون .

رجل من بغداد : ماذا يقول ؟ لا أفهم ما يقصد ..

الهروى : لكن ما يحزننى هو أنكم تتصدون لأمر هو بين العبد وخالقه .. أمر يحاسب عليه الله يوم القيامة دون أن ندرى شيئا عن معايير حسابه فهو العليم القدير .. أمر يضر العاصى الذى يرتبك الإثم ولا يضر أمة الإسلام .. لكنى لا أراكم تظهرون نفس الغيرة أو ذات الحمية حين يتعلق الأمر بنصرة أمة العرب والمسلمين وبتقديم العون لاخوانكم وأخواتكم الذين يعانون من المحنة . ألم تعلموا أن قدس الأقداس .. بيت المقدس قد سقط بين أيدى الفرنجة .. درة الكون لم تعد بين أيدينا . سرة الأرض انتزعها الفرنجة من أمة العرب والإسلام فى غفلة من الزمان . المسجد الأقصى صار كنيسة يصلى فيها الفرنجة ولم تعد كلمة الله تنطلق بين جدرانه الشريفة . جامع عمر سلب ونهب ومن يدرى فربما يصل بهم مس الجنون وفورة الانتقام إلى هدم بيوت الله . فمن تحرك منكم لهذا ؟ من أدى واجبه لتخليص بيت المقدس من أيدى المعتدين ؟ لقد ثارت ثائرتكم عندما رأيتونى أتناول الطعام . فهل إفطارى فى رمضان أخطر على أمة الإسلام من سقوط بيت المقدس ؟ هل أختلت الأوليات فى عقولكم وضمائركم إلى هذه الدرجة ؟

رجل من بغداد : القدس تابعة للدولة الفاطمية فلماذا

لا تذهب إلى أولى الأمر بها لتشكو حالها ..

آخر : نعم هم الذين تركوها تسقط بين أيدى الفرنجة وتقاعسوا عن أداء واجبهم .

الهروى : هل أختفت النخوة من قلوبكم إلى هذا الحد ؟ ألا تعلمون ما حدث لأخواتكم نساء القدس وبناتها ؟ ألا تعرفون ما فعل بهم الفرنجة أم تريدون أن أفصل لكم ما أقصد ؟ ألا تعرفون أنهم اعتدوا على أعراضهن . أليس فى ذلك مساس بشرفكم وبرجولتكم ؟ كم فتاة أخفت وجهها حياء وراء يديها وهى تقع فى السبى وتباع فى سوق الرقيق الأبيض .. انظروا إلى أخوانكم الهاربين من مذبحة القدس .. انظروا .. إنهم كالموتى الأحياء .. لقد رأوا شبح المنية بأعينهم وأزكمت أنوفهم رائحة الموت .. هذا هو المصير الذى ينتظركم وينتظر نساءكم إن لم تتحركوا الان .. دون حجج واهية ودون غرس رؤوسكم فى الرمال .

(صمت من الجميع يقطعه صوت قائد الشرطة بعد قليل) .

قائد الشرطة : أيها الشيخ لا شأن لنا بكل هذا . فهذه الأمور من مسئولية أولى الأمر . أما أنا فمن

واجبى الآن أن أصطحبك إلى رؤسائى ليبتوا فى أمرك .. صحيح أنك قاضى قضاة دمشق وشيخ جليل من شيوخ الإسلام لكن ما فعلته على مرأى من الجميع هو ذنب يقام عليه الحد .

أبو سعد : أتظنني أخشى شيئا مثل هذا ؟ أن السوط الذى تهددنى به أهون على نفسى بكثير من الخناجر التى تمزق قلبى منذ أن علمت بمأساة سقوط بيت المقدس . لكنى لم أحضر إلى بغداد لأناقش أمورا فقهية فى وجوب الصوم وأجازة الافطار ..

قائد الشرطة : ولماذا جئت إذاً ؟

الهروى : جئت للقاء خليفة الإسلام والمسلمين مع هؤلاء الأخوة لنعرف ما سيفعله بالفرنجة وما سيقرره لإنقاذ أمتنا من الهلاك .. أليس هذا أهم وأنفع من قصة إفطار شيخ ضعيف مثلى ؟

رئيس الشرطة : لا تستدرجنى إلى موضوع غير موضوعنا .

الهروى : أريد أن التقى بخليفة المسلمين .

رجل من بغداد : بل ستذهب إلى السجن وتلتقى هناك بالسجان .

آخر : يبدو أنه مجنون .

(**رجل مهيب يقترب وحوله حرس**) : ما هذا : ما كل هذه الضجة ؟

قائد الحرس : مولاى .. مرحبا بك يا مولاى .. هذا الرجل أفطر منذ لحظات هنا أمام المسجد والمؤذن ينادى لصلاة الظهر وهو يدعى أنه الشيخ أبو سعد الهروى قاضى قضاة دمشق . فماذا نفعل به يا مولاى ؟

عم الخليفة : أحقا ما يقول ؟ هل أجهرت بالافطار أمام بيت الله ؟

الهروى : نعم .. فعلت ذلك .

عم الخليفة : ولديك شجاعة الاعتراف .. ألا تعرف عقوبة ما فعلت يا رجل ؟ فإن كنت القاضى الهروى حقا كما تدعى فكيف تأتى بما حرمه الله ؟

الهروى : أنا القاضى أبو سعد الهروى قاضى قضاة دمشق .. وقد جئت إلى هنا على رأس فوج من المهاجرين الذين هربوا من ديارهم لتقاعس المسلمين عن أقدس واجباتهم وأهم فرائضهم وهى الجهاد فى سبيل الله عز وجل .. الجهاد لا من أجل البغى والعدوان أو الاعتداء على أحد إنما من أجل الدفاع عن مقدسات ديننا وعن نسائنا وأطفالنا وشيوخنا . لكن يبدو

أنّ ما تفهموه عن الدين يختلف عما أفهمه أنا .

عم الخليفة : وما فهمك للدين إن كنت تستهزىء بأهم أركان الإسلام . ألا تعرف مكانة الصوم في صدارة تعاليم ديننا أيها الشيخ ؟

الهروى : حاشنى الله أن استهزىء بأقل ما يمس دين الله من قريب أو بعيد .. لكن قل لىَ يا رجل ما جدوى ركن الصلاة إذا فنى المسلمون من على وجه الأرض ؟ من سيصلى لله إذا استمر الفرنجة فى اكتساح أراضى العرب والمسلمين وغزوها وكأنهم فى نزهة بربوع خالية من السكان ؟ من الذى سيلتزم بالصوم إذا ذبح كافة المسلمين على يد الفرنجة وتنصر من بقى حيا حفاظا على حياته ؟ ثم إنك عرفت من أنا .. أما أنا فلا أعرف مَن أنت .

قائد الحرس : أنت تتحدث إلى مولاى جلال الدين عم الخليفة المستظهر بالله أطال الله عمره .

الهروى : عم الخليفة .. عم الخليفة .. مرحبا بك يا سيدى .. مرحبا بك .. لقد قطعنا طريقا شاقا وطويلا لغرض واحد هو رؤية الخليفة والتشرف بلقائه . بالله عليك يا سيدى ساعدنا فى هذه المهمة .. فرجال الخليفة يحولون بيننا وبينه .

عم الخليفة : لماذا ؟ من حال بينكم وبين الخليفة ؟

الهروى : لا أعرف أسماءهم ولا يهمنى أن أعرفها .. لكن الحرس منعونا حتى من دخول القصر . وعندما ألححنا فى طلب لقاء الخليفة خرج علينا رجل تبدو عليه علامات الاستهتار واللامبالاة وقال لنا أن وقت الخليفة لا يسمح له باستقبالنا ثم طلب منى أن أدفع له مائة دينار حتى أستطيع المثول فى حضرة المستظهر بالله أعزه الخالق .. فهل يرضيك ذلك يا مولاى ؟

عم الخليفة : ولماذا تريد لقاء الخليفة ؟ ما الذى تنتظره منه ؟

الهروى : انتظر منه الكثير يا مولاى .. انتظر منه أن يقول كلمته فتهتز ممالك العرب والإسلام وتستجيب لندائة وتهب لنصرة بيت المقدس . فسقوطه أكبر كارثة واجهها عالمنا منذ غاب عن دنيانا رسول الله وصعد لجوار الرفيق الأعلى . إن سقوط القدس هو قاع الهوة السحيقة التى تدحرجنا إليها ويوم أسود لم ....

جلال الدين : لا تهول الأمور يا رجل .. أنت تتحدث وكأن الحياة قد توقفت بعد سقوط القدس .. وأشعر وأنا أسمعك كأنه قد نفخ فى الصور وأن القيامة

قد قامت .. فاهدأ قليلا لأننى لا أفهم ما تريد وأنت فى هذا الحالة .. ومن هؤلاء الذين معك ؟ هل هم جنودك لتحرير القدس ..

الهروى : لا يامولاى .. بل هم الناجون من أكبر مجزرة عرفها العرب والمسلمون منذ ظهور الإسلام . أنهم أهالى القدس الذين حفظهم الله من المذبحة ليكونوا شهودا أحياء علي ما حدث وحتى لا يأتى من يهون من المأساة ويدعى أن الأمر أقل بشاعة مما يقال .

جلال الدين : إذا فقد أفطرت أمام المسجد لجذب الانتباه .

الهروى : لم أجد وسيلة أخرى يا مولاى لتحقيق غرضنا .. وأرى أن الله قد استجاب لنا فمررت أنت لتنقذنا مما نحن فيه وتصبحنا إلى الخليفة .

جلال الدين : ومن قال لك أنى سأفعل ذلك ؟

الهروى : لابد يا سيدى .. لابد .. صدقنى .. الموقف خطير والأعصار الذى هب على بيت المقدس لن يرحم بغداد وسيدرككم خلال شهور أو ربما سنوات .. لكنه سيدرككم بالتأكيد إن لم تنتبهوا من الآن وتتخذوا التدابير لوقف زحف الفرنجة .

جلال الدين : كلامك لم يقنعنى .. ولكنه أثر فى .. سأصطحبك بالفعل للقاء الخليفة . لكن عليك أن تزن

كلامك أمامه وألا تعطى له مثل هذه الصورة القاتمة لأحوال المسلمين . فهو لم يسمع منذ شهور سوى أخبار تشيع الغم فى النفس .

الهروى : لن أقول له إلا الحق .

جلال الدين : لا أشك فى ذلك .. لكن الحق له عدة أوجه .. فأرجو إلا تختار أقبحها لتقذف به فى وجه الخليفة .. فهو عادة لا يلتقى بالغرباء وسأجعله يكسر هذه القاعدة من أجلكم فلا تجعلنى أندم على هذا .

الهروى : بارك الله فيك يا مولاى .. سيذكر لك هذا الموقف .

جلال الدين : إذا .. أتبعونى إلى القصر وسآمر الحرس بإدخالكم .



المشهد الثامن

(قاعة ضخمة فى قصر الخليفة . مظاهر البهرجة والثراء واضحة فى كل ركن من الأركان . رجال يجلسون على آرائك وكراسى مريحة فى حالة مرح وانسجام . يدخل عم الخليفة ووراءه الهروى ثم سكان القدس) .

جلال الدين : انتظرونى هنا .. سأتحدث مع أمير المؤمنين فى شأنكم وأرجو أن يقتنع بأهمية لقائكم .

(يخرج جلال الدين . الهروى يتأمل المكان والموجودون ينظرون إليه وإلى من معه باشمئزاز واضح) .

أحد الجالسين : من هؤلاء ؟ ومن سمح لهم بدخول القصر ؟

آخر : لقد دخلوا برفقة مولانا جلال الدين .

الهروى (يتوجه فجأة بالحديث إلى الجالسين) : كيف تطيقون هذا العيش الرغيد والتنعم بمفاتن الدنيا بهذه الصورة وأخوانكم فى القدس وفى الشام قد ذبحوا والنساء قد استبحن ؟ كيف تنامون بعيون مطمئنة وقد دنس العدو أرضنا الطاهرة وداس على محرماتنا وحول مساجد الله إلى كنائس ؟

أحد الحاضرين : اسكتوا هذا المخرف على الفور ..

آخر : من أين خرج لنا هذا المجذوب ؟

آخر : أتعلم أمام من تتحدث أيها الشيخ ؟

الهروى : لا أعرف .. ولا يهمنى أن أعرف .. كل ما أعرفه أننى أقف أمام من تقاعسوا فى أداء واجبهم إزاء أمتهم .. أقف أمام من ساهموا بعزوفهم أو جهلهم أو سلبيتهم إلى الحال المخجل الذى وصلت إليه أمتنا . ألا تعلمون ما حدث لأخوانكم فى العروبة والإسلام أم أنكم تتعامون عمدا خوفا من تحمل مسئولياتكم وهربا من مواجهة واجبكم ؟

الوزير : من هذا الرجل ؟ ومن الذى أدخله إلى القصر ؟

آخر : إنه أبو سعد الهروى قاضى قضاة دمشق .. وقد جاء مع بعض سكان القدس إلى بغداد أملا فى معاونتهم على تجاوز محنتهم .

الهروى : لقد مررنا قبل دخولنا هذه القاعة على أماكن لم يكن يخطر ببالى أنها توجد على وجه الأرض .. كنت فى أقصى شطحات خيالى أتصورها موجودة فى الجنة التى وعد بها الله الصالحين مكافأة على تقواهم فى الدنيا . فما كل هذه الحدائق الغناءة والطيور المغردة وأصناف الببغاوات والصقور والنسور وشلالات المياه العذبة ؟ ما كل هذا الحرير والذهب والياقوت والماس فى كل مكان ؟ ما كل هذا ؟

الوزير : وما سر اندهاشك أيها القاضى ؟ هل يعيش الملك دقاق بكوخ فى دمشق ؟

الهروى : يعيش فى قصر .. لكن أحقر ركن من أركان هذا المكان يفوق بمراحل أجمل قاعة من قاعات الملك دقاق .

الوزير : إنه الفرق بين ملك إحدى المقاطعات وخليفة المسلمين يا رجل ..

الهروى : لكن من يعيش فى هذا البذخ الزائد عن الحدود لا يمكن أن يشعر بما يحدث خارج محيط جنته وربما تصور أن الدنيا كلها هكذا وأن من يشكو بالخارج ما هو إلا جاحد طماع .

وزير الخليفة : هدىء من روعك أيها القاضى .. أنا وزير الخليفة .. ولقد سمعنا عنك وعرفنا قصتكم .. لكنك لن تستميل أحدا إلى جانبك بهذا الأسلوب . فقلوبنا معكم ..لقد عشتم مأساة مروعة لابد أن تصيبكم بصدمة كمن أرتطم وجهة بحائط صلد وهو يسير آمنا فى الطريق . كلوا وأشربوا حتى تستريحوا من عناء سفركم الشاق ثم تجلسون فى حضرة الخليفة نصره الله تعالى حتى يقرر ما سنفعله لمواجهة هذا الموقف العسير .

القاضى الدامغانى : لقد نجحتم فى تحريك قلوبنا وتأليب المواجع علينا بمظهركم وسنرى ما الذى يمكن أن نفعله من أجلكم .

الهروى : لم نحضر إلى هنا لاستدرار عطف أحد .. لم نتجشم مشقة سفر طويل عانينا فى كل لحظة منه تحت قيظ الشمس لنسمع مثل هذا الكلام الأملس والعبارات المعسولة .

الوزير : من الواضح أنك موهوب فى استعداء

الناس عليك وفى تنفيرهم من قضيتك . القاضى الدامغانى قاضى بغداد يقول لك أنكم نجحتم فى تحريك قلوبنا فيكون هذا ردك ..

سليمان : نقول لك أننا لسنا ضدك يا رجل .

الهروى : نحن جئنا إلى بغداد ليسمع منا أمير المؤمنين رمز أمة الإسلام وأمل رجالها ونسائها وشيوخها وأطفالها . لقد أصيبت بلادنا بالشلل وشعوبنا بالعقم . لم نعد قادرين على مواجهة البلاء الذى جاءنا من الشمال بعد أن قام أسلافنا بتأديب الكفار فى كل مكان على مر الدهر .

أما اليوم فمدننا تتساقط بين أيديهم كأوراق الشجر ونبكى عليها حيارى عاجزين . لم يعد هناك أى رابط ولا وازع يحرك رجالنا للدفاع عن أوطانهم ربما لسبب بسيط وهو أنهم يشعرون أنها ليست لهم وأنهم غرباء فوق أرض وطنهم .

القاضى الدامغانى : يبدو أنك تعانى من مشكلات فى دمشق .. ما هى علاقتك بالملك دقاق .. من الممكن أن يتدخل الخليفة ليتوسط لك عنده .

الهروى : لم أحضر إلى هنا لحل مشاكلى الشخصية .. ألا تفهمون .. هل أصابكم عمى القلب

بعد أن أبتليتم بعمى البصيرة ؟ ألا تشعرون بما يحدث . إننا نواجه النكسة وراء النكسة . لقد سقطت طليطلة فى سطوة الأعداء ووقعت جزيرة مالطة بين أيدى النورمان .. وضاعت انطاكية .. واليوم سقطت أغلى درة فى ديار الإسلام .. سقط ثالث الحرمين ومسرى رسول الله والقبلة الأولى التى صلى إليها الرسول والمسلمون من ورائه .. بيت المقدس انتزع منا وأبيد أكثر من سبعين ألف إنسان كانوا يعيشون تحت سمائه . يالهفتى على هؤلاء الشهداء .. لقد كان من بينهم بعض من خيرة أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم فارقوا أوطانهم من أجل مجاورة الموضع الشريف .

سليمان : لا تصرخ هكذا يا رجل .. أنت لا تخطب فى ساحة بالطريق العام فتسعى لاستثارة غرائز الغوغاء .. أنت تتحدث أمام سادة البلاد وصفوة مجتمع بغداد عاصمة العرب والإسلام . ألا تدرك ذلك ؟

الهروى : نعم .. أدرك ذلك .. وأدرك الآن سبب محنتنا .. لقد أصبحنا جثة مترهلة مخدرة الاحساس .. لم يعد هناك أمل إلا فى خليفة رسول الله لإخراجنا من هذا الوضع المشين . أين هو ؟ أين المستظهر بالله ؟

لم نعد قادرين على الانتظار .

الدامغانى : تقصد لم تعد قادرا .. فالذين معك فى غاية الهدوء ويعرفون آداب التصرف فى مثل هذا الموقف .. فلا تنس أنك فى قصر خليفة المسلمين .

الهروى : اعلم ذلك يا سيدى .. ولكن ....

(يدخل جلال الدين فيتركز اهتمام الهروى وأهل القدس عليه) .

جلال الدين : سيستمع إليكم أمير المؤمنين ..

(يقترب من الهروى ويخفض صوته) : لكن لا تنس ما اتفقنا عليه ..

(يدخل حارس مسرعا ويصيح) : أمير المؤمنين .

(يدخل الخليفة .. الكل ينحنى . بعض سكان القدس يصيحون : الله أكبر) .

الوزير : مرحبا بمولاى أمير المؤمنين .. ادعو الله أن تكون قد أسترحت ونعمت بنوم هادىء .

الخليفة : أحمد الله . ما أهم أخبار اليوم أيها الوزير ؟

الوزير : لا شىء يسترعى الاهتمام يا سيدى .. بعض الشعراء مستعدون بقصائد يلتمسون منك أن تستمع إليها .

الخليفة : لا بأس . وماذا عن أهل القدس الذين حدثنى عنهم الأمير جلال الدين ؟

(ينظر إلـى أهل القدس .. فيتقدم ناحيتـه الهروى) .

الخليفة : أنت القاضى الهروى ؟

الهروى : نعم يا أمير المؤمنين .. وقد تكبدنا مشاقا مجهدة لنيل شرف المثول فى حضرتكم .. لكن كل ما عانيناه قد محى الآن فى لحظة واحدة ودخلت إلى قلوبنا الطمأنينة والسكينة لمجرد ظهور طلعتك علينا .

الخليفة : سمعت عما فعلت للفت الأنظار .. لكن لا تعد إلى مثلها .. فبعض رجالى كانوا يصرون على توقيع العقوبة عليك .

الهروى : كانت الوسيلة الوحيدة للتشرف بلقائك يا مولاى .. والدليل على ذلك إننا هنا الآن بعد أن يأسنا من دخول القصر .

الخليفة : وما الذى يمكن أن أصنعه لكم ؟

الهروى : يا أمير المؤمنين أن أمتنا تتعرض اليوم لعاصفة تهدد باقتلاعها من الوجود .. لكننى لا أجد من يعى هذا الخطر بالقدر المناسب . فالأمراء والسلاطين همهم البقاء على عروشهم وقادتنا العسكريون يملكون

سلاحا لا يقاتل إلا العرب والمسلمين لكنه عاجز عن مواجهة الفرنجة .

الخليفة : كيف لا تجد من يعى هذا الخطر ؟ أمامك القاضى الدامغانى قاضى بغداد وهو عالم من علماء الإسلام ومدرك تمام الإدراك لكل ما يحدث .

الهروى : من المؤسف يا مولاى أن أكبر علمائنا منشغلون عن الكارثة التى نواجهها .

الدامغانى : كيف تقول هذا ؟ أن علماءنا لم يقصروا فى شىء .

الهروى : أنهم لا يعبأون بالخطر الذى يتهدد أمتنا أو هم لا يستشعرونه وهو ألعن . فالعالم الحق هو الذى يستشرف المستقبل ويشعر بجلده ولحم جسده من أين يأتى الخطر المحدق بمجتمعه والعالم الحق هو من يختزل هموم الناس وتعيش محنة وطنه فى قلبه ووجدانه ويشعر بها قبل كل الآخرين .

الخليفة : من الذى تقصده بهذا الهجوم اللاذع ؟

الهروى : لا أقصد أحدهم بعينه . فلا أرى واحدا منهم مهتم بالمصيبة التى نواجهها . أتدرى ما يكتبه أحد رؤوس العلم والفكر فى أمتنا أمامنا الكبير الغزالى ؟ أتعلم أنه لم يقل كلمة واحدة فى قضية غزو

الفرنجة الذى يكاد يودى بالإسلام ويكتب عن أدب اجابة الدعوة إلى الطعام موصيا ألا يتصدر المدعو فيأخذ أحسن الأماكن وألا يكثر النظر إلى الموضع الذى يخرج منه الطعام لأن ذلك دليل على الشره .

سليمان : ماذا تقول يا رجل .. ماذا تقول ؟ أتتهجم على أمامنا الجليل ؟

الوزير : كيف تريد من حجة الإسلام الغزالى أن ينفعل بما يحدث وهو يعيش الآن فى طوس على بعد آلاف الأميال بعيدا عن الأحداث التى نعايشها نحن .. إنه الآن منكب على علوم الدين من أجل خير الإسلام والمسلمين .. أما عن الأمة الإسلامية فلها الله سبحانه وتعالى يحميها من كل الأخطار .. أم أنك تجادل فى هذه الحقيقة البديهية أيضا ..

الدامغانى : وماذا تعرف أنت عما يجول فى فكر أمامنا ؟ إن العلماء العظام من أمثاله لا يرون الدنيا كما نراها نحن .. فهناك أحجبة أمام أبصارنا تمنع عنا صفاء الرؤية . أما هم فتنكشف عنهم الأحجبة كلما اقتربوا من الله فيرون مالا نرى ويسمعون مالا نسمع .

سليمان : كيف تجترىء على أمامنا الجليل بهذا

الأسلوب الفج ؟ ثم ما الخطأ فيما يقول ؟ أنه يعلمنا آداب ديننا .

الهروى : هذا صحيح .. لكن الأجدى الآن أن يستخدم مكانته الضخمة عند الناس للدعوة إلى الجهاد من أجل استرجاع القدس .

سليمان : هذا ليس من شأنك .. أتعطى دروسا لحجة الإسلام الغزالى .

الهروى : أنا لا أعطى دروسا لأحد .. ثم ما سر حماستك الدافقة ؟ هل أنت من العلماء ؟

الوزير : إنه الشيخ سليمان شيخ تجار بغداد .

الهروى : وما دخله بالعلم ؟ ولماذا يجادل فيما لا يعرف ؟ .

سليمان : وهل العلم حكر عليك يا رجل ؟

الهروى : لا .. ولكنى لا أجادلك فى تجارتك .. فاترك لى ما تخصصت فيه وما أفنيت عمرى من أجله .

سليمان : وأنا أفهم منك فى هذه الأمور أيضا . فأنا بمالى أستطيع أن اشترى عشرة علماء من أمثالك ..

الهروى : لكنك لا تستطيع .....

الوزير : ما هذا يا سادة انتشاجرون فى حضرة

الخليفة .

امرأة أولى : يا سيدى القاضى .. اجئنا نتجادل فيما يكتبه أو لايكتبه الإمام الغزالى أم من أجل إنقاذ بيت المقدس ؟

الهروى : معك حق .. يا امير المؤمنين لم نحضر إلى هنا إلا لشخصك .. فأنت القلب النابض لهذه الأمة وننتظر منك سبيل الخلاص . نرجوك أن تتخذ القرار قبل فوات الآوان .

الخليفة : أى قرار وأى أوان ؟ أتظن أن سقوط بيت المقدس هو نهاية المطاف ؟ مالا تعرفه ولا يعرفه أحد هنا خبر بلغنى منذ لحظات .. جيش الأفضل شاهنشاه الفاطمى الذى خرج لانقاذ أورشاليم ووصل بعد أسبوعين من سقوطها فاجأه الفرنجة بالقرب من عسقلان وأنزلوا به هزيمة ساحقة دمرت الجزء الأكبر منه .

الهروى (يضع يديه على رأسه) : يا للخبر الأسود .

رجل ثانى : أنها مصيبة جديدة ..

الدامغانى : أى مصيبة يا أيها الرجل الساذج .. أتعتبر هزيمة هؤلاء المارقين مصيبة ؟

سليمان : ستكون هذه الهزيمة مسمارا جديدا فى

نعش الدولة الفاطمية بإذن الله .

الهروى : ماذا تقولون . أوصل بنا الأمر إلى أن نفرح لهزيمة إخواننا على يد الأعداء ؟ ألا تدركون أنها هزيمة لنا جميعا .. يا مولاى أرجوك أن تزيح عنا هذا الكابوس . أتوسل إليك أن تتخذ قرارا فوريا يكسر هذه الحلقة المفرغة التى ستؤدى بنا إلى الجحيم .

الخليفة : وما الذى يمكن أن أفعله ؟ (ينظر إلى وزيره) أليس الأفضل أن ننتظر وصول السلطان برقيارق ؟

الهروى : أى سلطان يا أمير المؤمن ؟ أنت خليفة المسلمين وكلهم يدينون لك بالسمع والطاعة . توكل على الله وأعلن التعبئة فى ديار العرب والإسلام فى كل مكان وأعط الأوامر بقيام جيش ضخم يليق بالجيوش التى فتحت العالم وطالما أرهبت أعداء العرب والإسلام .. إن كلمتك وحدها تكفى لاستنفار العرب والمسلمين فى كل مكان مهما أصابهم الشلل والعقم والتخلف . قل كلمتك يا مولاى .. أننا لا ننتظر إلا إشارة منك لنهب بكل قوتنا ونأكل أعداءنا بأسناننا ونسترد بيت المقدس ونعيد للعرب والمسلمين شرفهم وهيبتهم التى تبخرت بفعل انقسام كلمتهم وانقلابهم على

بعض البعض .

الخليفة : معك حق .. على أن اتخذ قرارا انتظارا لعودة برقيارق . ولن اتقاعس عن الاضطلاع بمسئولياتى .

الهروى : حفظك الله للعروبة وللإسلام يا أمير المؤمنين .

الوزير : مولاى .. الموقف اليوم فى غاية التعقيد .. ونحن منذ أكثر من عامين نرقب تحركات الفرنجة ونتابع كل ما يفعلوه . وبطبيعة الحال فإنه لا يمكن السكوت على الهزائم المتتالية التى منى بها كليج أرسلان وياغى سيان وكل الملوك والسلاطين الذين حاربوهم . لكن من الصعب أن نتخذ قرارات حاسمة الآن دون أن نزن الأمور .

الدامغانى : نعم علينا أن نتروى . فالفرنجة لم يجترئوا على الاقتراب من الأراضى التابعة لنا يا مولاى .

الهروى : كيف تقول هذا ؟ إن كل أراضى العرب والمسلمين تابعة لخليفة رسول الله .

الخليفة : هذا صحيح .. أين عبادة ؟

عبادة : أنا هنا يا مولاى .. رهن إشارتك .

الخليفة : أكتب يا عبادة .. أننى أمرت أن تقوم

جماعة من حكماء ديار الإسلام بزيارة الأماكن المنكوبة لموافاتى بتقرير واف عن الأوضاع هناك وعن أحوال جيوش الفرنجة وظروفهم . أمرت أن يتوجه إلى الشام كل من القاضى أبو محمد الدامغانى وأبو بكر الشاشى وأبو القاسم الزنجانى وأبو الوفا بن عقيل وأبو سعد الحلوانى وأبو الحسين بن السماك . كم عدد هؤلاء يا عبادة ؟

عبادة : ستة يا أمير المؤمنين .

الخليفة : حسنا .. هذا يكفى . وعليهم أن يتحركوا غدا فى الصباح وأن يعودوا فى غضون شهرين على الأكثر لإطلاعى على الموقف بكل التفاصيل .

الوزير : هذا قرار حكيم يا أمير المؤمنين . فعلينا أن نتعرف على الوضع بوضوح قبل أى تحرك .

الدامغانى : نعم .. فالتسرع فى مثل هذه الأمور أمر غير مطلوب .

الخليفة : أتحب أن تنضم إلى جماعة الحكماء يا أبا سعد حتى نستفيد من خبرتك ومعرفتك بالمنطقة وما جرى فيها منذ بدء غزو الفرنجة ؟

(صمت)

الوزير : أرى يا مولاى أن حماسته ستكون مفيدة .

فهو كالبركان الذى لن يهدأ إلا بفعل الحركة وبتفريغ ما بداخله من غليان .

الخليفة : لماذا لا تجيب أيها القاضى الهروى ؟

الهروى : لا أعرف ما أقول يا مولاى .. أشكرك على ثقتك الغالية فهى شرف لى لكن هذا القرار الذى تفضلت باصداره هو آخر ما كنت أتوقعه .. فالمسألة ليست فى حاجة إلى مشاهدة وتقارير ورصد للأوضاع ..بل هى ليست فى حاجة إلى حكماء أصلا .. كل ما نحتاج إليه هو تحرك سريع يبطل مفعول انتصارات الفرنجة وتقدمهم الساحق فى أراضينا .

الخليفة : تريدنى أن أتوجه على رأس جيش لإنقاذ بيت المقدس ؟ ولماذا تطلب منى أنا مثل هذا الطلب ؟ لماذا أنا ؟ بيت المقدس كان جزءا من الدولة الفاطمية عندما وقع بين أيدى الفرنجة .. فلماذا لا تذهب إلى من يدعى الخلافة .. هذا المستعلى بالله فهو أولى بالدفاع عماه كان يملك . أجداده اغتصبوا السلطة بالقوة والقهر وادعوا نسبا شريفا لا صلة لهم به من أجل الاستيلاء على العرش .. ثم انقضوا على بيت المقدس منذ عام ليضموه من جديد إلى مملكتهم متصورين أنهم بهذا سيتفوقون على الدولة العباسية لأنهم يمتلكون بين

أيديهم أولى القبلتين وثالث الحرمين .. لكن الله كان لهم بالمرصاد وخيب آمالهم . فدعهم يتجرعون كأس المذلة والخزى .. أم تريدنى أن أنقذهم من محنتهم ليزدادوا فى بطشهم وتجبرهم ؟

القاضى : مولاى .. القضية أكبر من أى أشخاص ومن أية منافسة .. ولو كان ....

الخليفة : أنا لا أتنافس مع أحد .. أنا خليفة رسول الله وجدى الأعظم هو عم الرسول عليه الصلاة والسلام ..

الهروى : وهذه المكانة الرفيعة التى لا تضاهيها مكانة على وجه الأرض ليست مجرد شرف يتوج رأسك وإنما هى مسئولية لها تبعات ثقيلة أولها الدفاع عن حياة العرب والمسلمين وتأمين سلامة الأمة العربية ضد أى عدوان وبسط الأمن والأمان فى ربوعها .

الخليفة : قلت لك أن ما حدث هو عدل إلهى وعقاب من السماء لمن سلبوا ما لا حق لهم فيه وتربعوا على عروش لا تؤهلهم لها أى شرعية . إنهم يستحقون أكثر من هذا وادعو الله أن يستفيدوا من هذا الدرس ويستوعبوا مغزاه . والآن هل تريد أن تنضم إلى بعثة استقصاء حقيقة الأوضاع فى المنطقة أم أن لك رأيا آخر ؟

الهروى : أرجو يا مولاى أن تعفينى من هذه المهمة . فهذه البعثة ستعود دون نتيجة ولن يسمع عنها أحد فى التاريخ .. أما سقوط بيت المقدس وأما تخاذل أبناء هذا الجيل حكاما وشعوبا وأما انهيار روح الصمود وغياب النخوة والاعتزاز بالنفس فستظل نقاطا سوداء فى سجل أمة العرب وسيظل هذا العصر لحظة حزينة فى تاريخ أمتنا المديد .

الخليفة : كما تشاء يا هروى .. فهـذا كل ما أستطيع أن أفعله .

الهروى : اسمح لى إذن يا مولاى أن التقى بالسلطان برقيارق وأناقشه فيما يمكن أن يصنعه .

الخليفة : أذهب وقابله إن أردت . لكنه ليس فى بغداد الآن ..

الهروى : سمعت أنه خرج على رأس حملة لمحاربة أخيه محمد الذى يسعى لدخول بغداد على رأس جيشه .

الخليفة : هذا ليس من شأنى .

الهروى : وهل محمد هذا أخوه حقا من دمه ولحمه .

الوزير : نعم .. وما وجه الغرابة فى ذلك ؟ فكم من الاخوة يختلفون فيما بينهم .

الهروى : يختلفون لدجة الاقتتال ؟ يختلفون لدرجة تجييش الجيوش وشن الحرب على بعضهم ؟ الخلاف بين الأهل له حدود . ثم ألم يكن من الممكن تأجيل هذا الخلاف إلى أن نطرد الفرنجة من أراضينا ؟

الوزير : ألم يصل الحال بين دقاق ورضوان ملك حلب إلى درجة الاقتتال ؟ أليسا أشقاء من نفس الدم واللحم كما تقول ؟

الهروى : كنت أتصور أنها حالة شاذة .. لكن يبدو أنه أمر طبيعى فى هذا العصر الهازل .

الخليفة : أنت لا يعجبك العجب يا أيها القاضى .. لا أدرى كيف يتفاهم معك الملك دقاق . وهو أيضا ليس سهل المعاملة .

الهروى : أنه يتركنى أمارس عملى وأنا لا أطالبه بما لا يستطيع القيام به ..

الخليفة : ولماذا إذا تطالبنى أنا بتحقيق المعجزات ؟

الهروى : الملك دقاق حاكم متواضع من حكام ممالك هذه الأيام .. أما أنت فخليفة المسلمين والسلطة الروحية العليا وأمل العرب والإسلام .. لكن يبدو أن عالمنا أصبح جسدا بلا روح وأننى عشت فى وهم كبير

أفيق منه فى هذه اللحظة وكأن ماردا جبارا لطمنى على أم رأسى .

الوزير : كفى يا هروى .. لا تتطاول على خليفة رسول الله ..

سليمان : لقد تعدى هذا الرجل كل الحدود .

الدامغانى : لا تسكت عليه أكثر من هذا يا أمير المؤمنين .

الخليفة : أخرج من القصر حالا قبل أن آمر الحرس بطردك .

الهروى : لا داعى لهذا يا مولاى .. لا داعى .. سأخرج لأنه لم تعد هناك جدوى من وجودى هنا .. ولم تعد هناك فائدة من الكلام . سأخرج ولكن جمرة الأمل لا زالت موقدة فى قلبى بفضل هؤلاء الناس البسطاء الذين يرفضون واقعهم المرير ويتمسكون بحلم غد أفضل .. هيا يا إخوانى وبرغم بكل ما سمعتم إياكم أن تستسلموا لليأس .

امرأة ثانية : أبدا .. لن نستسلم لليأس يا سيدى القاضى .

رجل أول : نعم .. لن نستسلم لليأس .

سكان القدس : (وهم يتوجهون للخارج وراء

الهروى) لن نستسلم لليأس .. لن نستسلم لليأس . لن نستسلم لليأس ..

(يتوجه ناحية الباب ثم يتوقف عن الحركة فجأة وفى نفس اللحظة تتوقف الحركة تماما على خشبة المسرح مثلما تتوقف فى المناظر الثابتة بالسينما) .

الكورس : تقاتلوا أيها الأغبياء .. تنازعوا على مصالحكم الضيقة .. اختلفوا على التفاهات وتشاحنوا على مسمع ومرأى من العدو والصديق .. مزقوا صفوفكم .. علموا أولادكم كيف يكرهون إخوانهم ويخضعون للغريب .. استمروا .. يا أمة ضحكت من جهلها الأمم .

ســــتار



المحتويات

الصفحة

رقم الإيداع

٨٨٥٩ / ١٩٩٥



المؤلف :

- ١٩٦٧ تخرج فى كلية الآداب جامعة القاهرة قسم اللغة الفرنسية .
- ١٩٦٧ عمل محررا بوكالة أنباء الشرق الأوسط ثم بإذاعة القاهرة .

١٩٦٩ عمل محررا دبلوماسيا بمجلة المصور بالقاهرة .

- كتب التعليقات السياسية بالاذاعة وقدم نشرة الأخبار فى التليفزيون المصرى باللغة الفرنسية .
- ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥ عمل بأمانة منظمة اليونسكو الدولية فى باريس .
- من ١٩٨٥ مدير مكتب الأهرام فى باريس .
- ١٩٩٢ صدر له كتاب بعنوان : « هل فرنسا عنصرية ؟ » .
- ١٩٩٤ أصدر مجموعة قصص قصيرة بعنوان : « الشيخ عبد الله » .

